مفهوم إعجاز القرآن
عند الإمام الألوسي من خلال مقدمة تفسيره
(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)

إعداد

د/ محمد سليمان محمد حنفي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد، كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا

١٤٤٢هـ = ٢٠٢٠م

مفهوم إعجاز القرآن عند الإمام الألوسي من خلال مقدمة تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)

محمد سليمان محمد حنفي

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الاليكتروني :

mohamedsoliman@Azhar.edu.ed

ملخص البحث:

يتناول البحث في المقدمة: التعريف بالإمام الألوسي، وبتفسيره، وتعريف أيضا بمفهوم إعجاز القرآن.

ويتناول في المبحث الأول: وجوه الإعجاز التي ذكرها الإمام الألوسي عن العلماء السابقين، وموقفه منها.

ويتناول في المبحث الثاني: مفهوم الإعجاز عند الإمام الألوسي، وسبب قوله بذلك

وفي الخاتمة: أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج، وأهم التوصيات.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن – الإمام الألوسي – روح المعاني - الإعجاز

The title of the research: the concept of the miracle of the Qur'an by Imam Alusi through the introduction of his interpretation (The Spirit of Meaning in the Interpretation of the Great Qur'an and the Second Seven)

Name: A.D.M. / Mohammed Suleiman Mohammed Hanafi... Department of Interpretation and Sciences of the Qur'an, Faculty of The Qur'an for Readings and Sciences of Tanta - Al-Azhar University-Egypt.
Email : mohamedsoliman@Azhar.edu.ed

Abstract:

In the introduction, it deals with the definition of Imam Alusi, his interpretation, and the concept of the miracle of the Qur'an.

In the first thesis, it deals with the faces of miracles mentioned by Imam Alussi about former scholars, and his attitude towards them

In the second theme, he deals with the concept of miracles in Imam Alusi, and the reason for saying so

In conclusion: the most important findings of the researcher, and the most important recommendations.

Keywords: The Miracle of the Qur'an - Imam Alusi - The Spirit of Meanings- Miracles

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله رحمة للعالمين، سيدنا ونبينا محمد، صلى الله عليه وعلى أله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن من أعظم نعم الله تعالى على الناس جميعا أن أرسل إليهم رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وختم بدينه الأديان كلها، وكتب له الغلبة عليها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]، وأيده بالقرآن العظيم، وجعله معجزة خالدة على مر العصور، محفوظا من أن تناله أيدي العابثين؛ حيث تكفل - وحده- بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

ولما كان القرآن الكريم معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة، وحجته الباقية أبد الدهر، جعل الله تعالى له من الخصائص ما لم يجعله لغيره من الكتب السابقة، وكان من أعظم هذه الخصائص وأبينها أنه أعجز الثقلين (الإنس والجن) أجمعين عن أن يأتوا بمثله، مع تكرر التحدي مرة بعد مرة، وتوفر الدواعي، لاسيما مع تسفيه عقولهم وتحقير آلهتهم، فضلا عن كون الإتيان بمثل القرآن -لو استطاعوه- أيسر عليهم من خوض المعارك التي فيها هلاك أنفسهم وأموالهم، ويتم أولادهم، وترمل نسائهم... وغير ذلك من المخاطر.

وقد سجل القرآن الكريم عليهم عجزهم، حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعلى هذا فالإعجاز للقرآن ثابت لا مجال لإنكاره، ولكن العلماء اختلفوا -قديما وحديثا-في الوجه الذي وقع به الإعجاز، وذكروا فيه وجوها كثيرة، وكان منهم من اقتصر في الإعجاز على وجه واحد، ومنهم من ذكر أكثر من ذلك، وقد دار أكثرها بين الأخذ والرد عند العلماء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكان من بين هؤلاء العلماء الأماجد الذين لهم قدم راسخة في العلم الإمام الألوسي رحمه الله تعالى، فقد خصص الفائدة السابعة والأخيرة في مقدمة تفسيره لبيان وجه إعجاز القرآن، وذكر فيها من الوجوه التي ذكرها العلماء، وما ذكروه من الردود عليها، وما ردوا به على تلك الردود... إلخ. حتى انتهى إلى ما اطمأنت إليه نفسه فيه، وارتاح له قلبه من غير شك يعتريه، وهو أن القرآن معجز بجملته وبأبعاضه بوجوه أربعة: (نظمه، وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى) وقد قام ببيان كل وجه مما ذكر، وأحال في التفسير على ما لم يذكر.

وقد أشار عليّ بعض أساتذتي ممن لهم نظرة ثاقبة في المسائل التي تحتاج إلى دراسة أن أدرس رأي الألوسي في الإعجاز في هذه المقدمة مطبقا ذلك على ما ذكره أثناء تفسيره، وقد وجدت من نفسي خفة لخوض لجة هذا البحر العميق (بحر إعجاز القرآن) وها أنا ذا أشرع في ذلك مستعينا بالله، متوكلا عليه، سائلا إياه أن يجنبني مواطن الزلل، وأن يعصمني من موارد الخلل، إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد سميته: (**مفهوم إعجاز القرآن عند الإمام الألوسي من خلال مقدمة تفسيره. دراسة تحليلية**).

الدراسات السابقة:

كان ولا يزال العلامة الألوسي وتفسيرا مجالا رحبا للباحثين والدراسات، فتعددت وتنوعت الدراسات العلمية في هذا السفر القيم، منها على سبيل المثال:

- ❖ اختلاف القراءات القرآنية وأثره في اختلاف الإعراب في تفسير روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: أحمد علي عبد الله المسيعدين، (ماجستير) جامعة مؤتة ٢٠١٠م.
- ❖ الآلوسي مفسراً: محسن عبد الحميد، مطبعة المعارف، بغداد. الطبعة الأولى ١٩٦٩م.
- ❖ التعريف بالإمام الألوسي وتفسيره روح المعاني د. حاج حمد تاج السر حاج حمد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد (١٥) صفر١٤٣١هـ= فبراير٢٠١٠م.
- ❖ جهود أبي الثناء الآلوسي في الرد على الرافضة: عبد الله البخاري، دار ابن عفان – القاهرة. الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- ❖ ظاهرة الإمالة وقيمتها في التناسب الصوتي، دراسة في تفسير روح المعاني للألوسي: صفية طبني، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ـ جامعة محمد، بسكرة الجزائر، العدد الثامن٢٠١٢م.
- ❖ منهج الألوسي في التفسير: الطيب أحمد عبد الله، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الاسلامية. كلية أصول الدين. قسم التفسير.

كما تنوعت المصنفات والدراسات والبحوث العلمية في مجال

إعجاز القرآن الكريم، إلا أنني لم أقف على دراسة قامت بإظهار وجوه إعجاز القرآن الكريم في مقمة روح المعاني، ومظاهر تطبيقها في هذا السفر القيم.

أسئلة البحث:

يحاول البحث أن يجيب على بعض الأسئلة الآتية:

- ❖ ـ ما وجوه إعجاز القرآن الكريم عند العلامة الآلوسي؟
- ❖ ـ هل سبقه أحد إلى ذكر هذه الوجوه أو إلى إنكارها؟
- ❖ ـ ما مدى تطبيق العلامة الألوسي لهذه الوجوه في تفسيره؟

خطة البحث:

وقد رأيت أن تكون خطة البحث على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وسبب اختياري له، ومنهجي في البحث، وخطتي فيه.

مبحث تمهيدي: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف إعجاز القرآن.

المطلب الثاني: تعريف بالإمام الألوسي.

المبحث الأول: الإمام الألوسي وإعجاز القرآن.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها الألوسي.

المطلب الثاني: مفهوم إعجاز القرآن عند الألوسي.

المبحث الثاني: بيان الألوسي لوجوه إعجاز القرآن عنده.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الوجه الأول من وجوه الإعجاز القرآني (نظم القرآن).

المطلب الثاني: الوجه الثاني من وجوه الإعجاز (بلاغة القرآن).

المطلب الثالث: الوجه الثالث من وجوه الإعجاز القرآني (الإخبار بالغيب).

المطلب الرابع: الوجه الرابع من وجوه الإعجاز القرآني (موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى).

المبحث الثالث: موقف الألوسي من آيات التحدي.

المبحث الرابع: الأقوال المستبعدة في إعجاز القرآن عند الألوسي.

المبحث الخامس: القدر المعجز من القرآن عند الألوسي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي انتهى إليها البحث.

الفهارس: وفيها فهرسان: فهرس الموضوعات، وفهرس المراجع.

والله تعالى أسأل أن يرزقنا التوفيق فيما نقول أو نذر، إنه سميع قريب مجيب.

المطلب الأول
تعريف إعجاز القرآن

يتكون هذا المصطلح من كلمتين: الأولى: إعجاز، والثانية: القرآن. وسوف أتناول كل كلمة على حده قبل التعريف بهذا المصطلح.

أولا: تعريف الإعجاز في اللغة والاصطلاح.

أ- تعريف الإعجاز في اللغة.

الإعجاز: مأخوذ من العَجْزِ، والعجز مصدر الفعل (عَجَزَ)، وتدور مادة (عَجَزَ) في اللغة حول الضعف عن فعل الشيء والتأخر عنه، وعدم القدرة عليه، وأعجزه: صيره عاجزا عن إدراكه واللحوق به[1].

والإعجاز هو الفَوْتُ والسَّبْقُ، وأعجزني فلان، أي: فاتني وسبقني[2].

وعلى هذا فـ "الإعجاز إِفعال من العَجْز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأى أو تدبير"[3].

وهو بالنسبة لحال المُعْجِزِ الفوت والسبق، وبالنسبة لحال العاجز الضعف والتأخر[4].

ب- تعريف الإعجاز في الاصطلاح.

وهو تعريف للإعجاز في الكلام على سبيل العموم، وهو: "أن يُؤدَّي

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥٤٧)، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (١٥/ ٢١١).

(٢) ينظر تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢١٩)، ولسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (١/ ٦٥).

(٤) ينظر إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف (ص: ٢٦).

المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[١].

ومعنى هذا أن يسبق هذا الكلام غيره في البلاغة، فلا يدانيه شيء من الكلام. والله أعلم.

ثانيا: تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح.

تعريف القرآن في اللغة.

اختُلِف في لفظ القرآن، هل هو مشتق أو غير مشتق، فذهب بعض العلماء إلى أنه غير مشتق من شيء، وأنه اسم علم خاص بكلام الله تعالى، كاختصاص التوراة بما أنزل على موسى، والإنجيل بما أنزل على عيسى عليهما السلام، وأنه في الأصل مصدر، كالرُجحان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] ثم اختص بالقرآن[٢].

وذهب بعضهم إلى أنه مشتق، وهؤلاء اختلفوا فيما اشتُق منه، فقيل: "مشتق من القَرْيِ، وهو الجمع، منه قَرَيْتُ الماء في الحوض، أي: جمعته" أو "أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، إذا ضممته إليه، فسمي بذلك لقِران السور والآيات والحروف فيه، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة: قِرَان[٣].

واختلفوا في القرآن أيضا هل هو مهموز أو غير مهموز على قولين.

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص: ٣١).

(٢) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٦٦٩)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ومناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ الزرقاني (١/ ١٤).

(٣) ينظر البرهان للزركشي (١/ ٢٧٧، ٢٧٨).

ورجحوا كونه مهموزا، وأن ترك الهمز من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها[1]، وهي قراءة ابن كثير المكي[2].

أ- تعريف القرآن في الاصطلاح.

اتفق العلماء على أن القرآن كلام الله تعالى، ولكنهم اختلفوا في المراد به من حيث إن الكلام يطلق على مدلول الألفاظ، وهي المعاني التي في النفس، وهو مذهب المتكلمين في تعريف القرآن حيث يطلقونه على الكلام النفسي، ويطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس، وهو مذهب الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية[3].

وقد ذكروا فيه عدة تعريفات، بحسب الجهة التي نظروا إليه من خلالها، ومنها تعريفه بأنه: "الكلام المنزل للإعجاز بسورة منه"[4].

وهؤلاء نظروا إلى القرآن من ناحية الإنزال والإعجاز فقط كونهما أهم صفتين فيه.

ومنهم من أضاف إليه صفات أخرى، كالتعبد بتلاوته، كما في تعريفه بأنه: "اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٧٨)، ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني (١/ ١٤).

(٢) ينظر التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (ص: ٧٩)، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (١/ ٤١٤)، ومعجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب (١/ ٢٥٥).

(٣) ينظر بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب لشمس الدين الأصفهاني (١/ ٤٥٧، ٤٥٨)، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٢/ ١٧٧).

(٤) مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب (١/ ٣٧٢)، ونهاية السول للإسنوي شرح منهاج الوصول في علم الأصول للبيضاوي (ص: ٧٧).

المتعبد بتلاوته"[١].

ومنهم من أضاف إليه الكتابة والنقل، كما في تعريفه بأنه: "المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، المكتوب في دفات المصاحف، المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا"[٢].

وإذ قد انتهينا من تعريف كلمتي المركب الإضافي: (إعجاز القرآن) كل على حده فقد حان الوقت لتعريف المركب نفسه، وقد تعددت هذه التعريفات، وتعريف كل واحد بحسب الوجه الذي ارتآه وجها لإعجاز القرآن.

فعرفه أبو البقاء الكفوي بأنه: "ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأي الصحيح، لا الإخبار عن المغيبات، ولا عدم التناقض والاختلاف، ولا الأسلوب الخاص، ولا صرف العقول عن المعارضة، ولا إيجاز اللفظ، أو كثرة المعنى، وليس إعجازه لمعناه فقط... إلخ"[٣].

ومنهم من عرف إعجاز القرآن تعريفا عاما بغض النظر عن وجه إعجازه، كتعريف الزرقاني له بقوله: "إعجاز القرآن مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثباتُ القرآن عجزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به"[٤].

---

(١) جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي (ص: ٢١).

(٢) أصول السرخسي (١/ ٢٧٩).

(٣) الكليات (ص: ١٤٩).

(٤) مناهل العرفان (٢/ ٣٣١).

ويمكن لي تعريف إعجاز القرآن من خلال ما سبق من المعنى اللغوي بأنه: سبقُ القرآنِ البشر وفوتُهم، وجعلُهم عاجزين عن إدراكه واللحوق به؛ تأييدا لنبيه صلى الله عليه وسلم، وتصديقا لدعوته، والله أعلم.

المطلب الثاني
تعريف بالإمام الألوسي

اسمه ونسبه وولادته

هو السيد أبو الثناء شهاب الدين محمود بن السيد عبد الله أفندي الألوسي[١] البغدادي، أحد أعيان الأسرة الألوسية ببغداد، ينتهي نسبه من جهة الأب إلى الإمام الحسين، ومن جهة الأم إلى الإمام الحسن رضي الله عنهما[٢]، ولد في شعبان سنة سبع عشرة ومائتين وألف من الهجرة (١٢١٧هـ) بالكرخ[٣].

---

(١) نسبة إلى (آلُوْسَة) بالمد وضم اللام وسكون الواو، أو إلى (أَلُوْس) بالقصر، وهي قرية على نهر الفرات قرب عانات والحديثة على الصحيح، سميت باسم رجلٍ يقال له (ألوس). [ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ٥٦)، (١/ ٢٤٦)].
وذكر الزبيدي: أنه على وزن صبور. [ينظر تاج العروس (١٥/ ٤٠٥)] فهو إذن بالقصر وبفتح الألف وضم اللام (أَلُوس)، وقد صححه جماعة من المؤرخين. [ينظر أعلام العراق لمحمد بهجة الأثري (ص: ٨)].
بينما ذكر الزركلي أنه وجد في [مجلة (لغة العرب (٣: ٦٩)] (آلوس)، وفي [مجلة المجمع العلمي العربي (١: ٧٦)] رسالة أولها: (أما بعد فيقول الفقير إلى الله تعالى محمود شكري الآلوسي) كتبها بالمد، وذكر أيضا أن استفتى أحد فضلاء الآلوسيين ببغداد فأجاب: المعروف عندنا المد. [ينظر الأعلام للزركلي (١/ ٢٥)]، وقد رجعت إلى المجلتين المذكورتين فوجدت ما قال صحيحا، والظاهر أنه يجوز فيها الوجهان: المد والقصر، والله أعلم.

(٢) ذكر ذلك الألوسي نفسه في آخر تفسير سورة الشعراء، عند التفسير الإشاري لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. [ينظر روح المعاني (١٠/ ١٥٠)].

(٣) ينظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (ص: ١٤٥٠- ١٤٥٣)، وتراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر لجرجي زيدان

حياته العلمية

بدأ حياته العلمية بالأخذ عن والده، ثم أخذ العلم عن فحول علماء عصره، كالشيخ الحافظ علي السويدي، والشيخ خالد النقشبندي، والشيخ علاء الدين علي الموصلي، وغيرهم، واشتغل بالتدريس والتأليف في سن الطفولة، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقام بالتدريس في عدة أماكن ومدارس، ودرس على يديه خلق كثير من قاص ودان، وقصده طلاب العلم من كل مكان، وتخرج على يديه جماعة من الأفاضل، وقد ولي قضاء الحنفية ببغداد(١).

من ثناء العلماء عليه

حظي الإمام الألوسي رحمه الله بثناء العلماء عليه ممن أخذ عنه أو ترجم له، ومن ذلك قول الشيخ عبد الرزاق البيطار عنه: "كان رضي الله عنه أحد أفراد الدنيا، يقول الحق، ولا يحيد عن الصدق، متمسكًا بالسنن، متجنبًا عن الفتن، حتى جاء مجدداً، وللدين الحنفي مسدداً، وكان جل ميله لخدمة كتاب الله، وحديث جده رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهما المشتملان على جميع العلوم، وإليهما المرجع في المنطوق والمفهوم، وكان غاية في الحرص على تزايد علمهن وتوفير نصيبه منه وسهمه"(٢).

(ص: ٢٢١)، وأعلام العراق لمحمد بهجة الأثري (ص: ٢١).

(١) ينظر المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١٢٧٢-١٣٤٢هـ) للسيد محمود شكري الألوسي (ص: ٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨)، وحلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (ص: ١٤٥٣).

(٢) حلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (ص: ١٤٥٣).

مذهبه الفقهي

كان أول الأمر شافعي المذهب كآبائه، ثم تحول إلى المذهب الحنفي، كما صرح بذلك عند تفسير البسملة من سورة الفاتحة[١].

وفاته

توفي رحمه الله تعالى سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة (١٢٧٠هـ) ببغداد، وعمره نحو ثلاث وخمسين سنة[٢].

مؤلفاته

للإمام الألوسي مؤلفات كثيرة، أشار إليها من ترجم له[٣].

والذي يعنينا منها هو تفسيره، فهو أهم كتبه على الإطلاق وأشهرها وأكثرها فائدة، وهو المسمى: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني).

قال عنه حفيده العلامة السيد محمود شكري الألوسي: "وله من جليل المؤلفات ما يشهد بأنه نال في العلم أقصى الغايات، منها -وهو أعظمها قدرا وأجلها فخرا-فهو تفسيره للقرآن العظيم والسبع المثاني، المسمى بـ (روح المعاني) فهو وخالق الإنس والجان كتاب لم يثن لعين في مرآة الزمان، قد بلغ ثمان مجلدات ضخام، جمعت من الدقائق

---

(١) ينظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس (١/ ٤)، وروح المعاني للألوسي (١/ ٤٢).

(٢) حلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (ص: ١٤٥٥)، وتراجم مشاهير الشرق لجرجي زيدان (ص: ٢٢٣)، وأعلام العراق لمحمد بهجة الأثري (ص: ٢٦).

(٣) ينظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس (١/ ٣- ٤)، وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي (٢/ ٢١٨، ٢١٨).

والحقائق ما لا يسع شرحه كلام، قد تعقب فيه على فخر الرازي في كثير من المسائل، ورده منتصرا للإمام الأعظم بأعظم الدلائل، وأيد فيه مذهب السلف الأسلم، بل الأعلم الأحكم"[1].

وذكر الألوسي في مقدمة هذا التفسير أنه كان منذ صغره متطلبا لاستكشاف سر القرآن المكنون، وكان منقطعا لذلك، حتى وقف على كثير من حقائقه، ولم يكن قد أتم العشرين من عمره، وكانت تحدثه نفسه بتقييد ما حصله، إلا أنه كان يتعلل تارة بتشويش البال بضيق الحال، وأخرى بفرط الملال لسعة المجال، إلى أن رأى في بعض ليالي الجمعة من شهر رجب سنة الألف والمائتين والاثنين والخمسين من الهجرة المباركة رؤية، وهي: أن الله جل وعلا أمره بطي السماوات والأرض، ورتق فتقهما على الطول والعرض، فرفع يدا إلى السماء، وخفض الأخرى إلى مستقر الماء، ثم انتبه من نومه، مستعظما رؤيته، فجعل يفتش عن تعبيرها، حتى رأى في بعض الكتب أنه إشارة إلى تأليف تفسير، فشرع في تفسيره.

وكانت بداية الشروع في تفسيره في الليلة السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة، وهو في السنة الرابعة والثلاثين من عمره.

وأما زمان ذلك فكان أيام خادم الحرمين السلطان محمود خان العدلي ابن السلطان عبد الحميد خان.

وأما عن تسميته فذكر أنه لما عزم على هذا التفسير جعل يفكر له في اسم فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر، وتبتش من سماعه الخواطر،

---

(١) المسك الأذفر (ص: ١٤٤، ١٤٥).

فعرضه على وزير الوزراء علي رضا باشا، فسماه على الفور: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)[١].

الفراغ من تفسيره

وبعد حياة عاشها الألوسي مع كتاب الله تعالى فرغ من تأليف هذا السفر العظيم في الرابع من شهر ربيع الثاني في سنة سبع وستين ومائتين وألف من الهجرة المباركة[٢].

وبالله تعالى التوفيق.

---

(١) ينظر مقدمة الألوسي لتفسيره (١/ ٤، ٥).

(٢) ينظر المسك الأذفر (ص: ١٤٠) الحاشية (٢).

المبحث الأول: الإمام الألوسي وإعجاز القرآن، وفيه مطلبان:

المطلب الأول
وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها الألوسي

لم يحظ كتاب بعناية كما حظي القرآن الكريم، فقد تناوله المسلمون منذ نزوله بالتدبر والتأمل والنظر، وكان من آثار ذلك البحث في وجه إعجازه، بعد أن سلَّموا بوقوع الإعجاز به، وإنما اختلفوا في الوجه الذي وقع به ذلك الإعجاز.

وقد رأى الألوسي أن إعجاز القرآن مما لا مرية فيه، ولا شبهة تعتريه، وأن الاستدلال عليه مما لا يُحتاج إليه، وأن الشبه صرير باب، أو طنين ذباب، وأن الأهم بالنسبة إلينا بيان وجه الإعجاز، وقد تكلم فيه على سبيل الإيجاز، وذكر ثمانية من هذه الأقوال، وذكر ما رُد به على بعضها، وسكت عن بعضها، ثم رد بعد ذلك على بعض تلك الردود، وقد رأيت أن أذكر هذه الأقوال لأن الألوسي اختار بعضها ليكوِّن منها مفهوم الإعجاز عنده، وهي كما يلي:

القول الأول: وعزاه لبعض المعتزلة، وهو اشتماله على النظم الغريب، والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من العرب في مطالعه وفواصله ومفاصله.

القول الثاني: وعزاه للجاحظ من المعتزلة أيضا، وهو اشتماله على البلاغة التي تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات.

الوجه الثالث: اشتماله على الإخبار بالغيب.

الوجه الرابع: كونه مع طوله وامتداده غير متناقض، ولا مختلف.

الوجه الخامس: موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى.

الوجه السادس: إعجازه قدمه.

الوجه السابع: وعزاه للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والنظام، وهو أن إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة.

الوجه الثامن: وهو قول الآمدي وغيره: الإعجاز بجملته وبالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب، وارتضاه الكثير.

ثم أشار الألوسي إلى أن هناك وجوها أخرى أكثرها خواص القرآن وفضائله[1].

هذا ما حكاه الألوسي من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، وقد سبقه إلى ذكر هذه الأقوال بنصها وترتيبها سيف الدين الآمدي وقد أسقط الألوسي منها وجهين آخرين، ذكرهما الآمدي بعد الوجه السادس، وهما: كونه دالا على الكلام القديم. ومجموع الوصفين: النظم الغريب، والبلاغة، وذكر أنه اختيار القاضي أبى بكر، يعني: الباقلاني[2].

حتى الردود والأجوبة التي أوردها الألوسي على الوجوه التي ذكرها نقلها عن الآمدي أيضا[3].

(١) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١/ ٢٨- ٣٠).

(٢) ينظر أبكار الأفكار في أصول الدين لسيف الدين الآمدي (٤/ ٦٩- ٧٤).

(٣) ينظر المرجع السابق (٤/ ٩٧- ١٢٩).

المطلب الثاني
مفهوم إعجاز القرآن عند الألوسي

وبعد أن ذكر الألوسي من وجوه الإعجاز ما سبق ذكره قال معربا عن مفهوم إعجاز القرآن عنده: "والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه، وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض، كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كاف، وفي الغرض واف"[1].

والذي يظهر لي أن أقرب الوجوه إلى قلب الألوسي هو الوجه الثامن منها، وهو الذي حكاه عن الآمدي[2]، وحكى عن الكثيرين ارتضاءه، وهو أشمل الأقوال المذكورة؛ لأنه جمع ثلاثة من الوجوه المذكورة، وهي الأُوَلُ منها، غير أنه أضاف إليه الوجه الخامس منها، وهو موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وصدره بكون القرآن الكريم معجزا بجملته وبأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجزة، وليس معجزا بجملته فقط.

وهذا يعني أن الإمام الألوسي يرى أن إعجاز القرآن كائن بجملته وبأبعاضه وهو يرجع إلى وجوه أربعة:

الأول: نظمه.

الثاني: بلاغته.

الثالث: إخباره عن الغيب.

الرابع: موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى.

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٢).

(٢) ينظر أبكار الأفكار للآمدي (٤/ ١٢٢).

وأن هذه الوجوه الأربعة قد تجتمع كلها في آية واحدة، وقد يستتر بعضها، كالإخبار عن الغيب، وهذا لا ضير فيه ولا عيب، فما بقي في الآية الواحدة من الوجوه الثلاثة كاف في الإعجاز، وفي الغرض منه واف.

وأما عن سبب اختيار الألوسي لهذه الوجوه الأربعة: فلكونها عنده الظاهرة في وجه إعجاز القرآن، وإن كان المشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغته وفصاحته؛ حيث بلغت الرتبة العليا، والغاية القصوى، التي لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن، وبعضهم جعل المدار النظم المخصوص والباقي تابع له[1].

وسوف أذكر فيما يلي كيف كان كل وجه من هذه الوجوه الأربعة وجها من وجوه الإعجاز عند الألوسي؟

(١) ينظر روح المعاني (١/ ٣٣، ٣٤).

المبحث الثاني
بيان الألوسي لوجوه إعجاز القرآن عنده

تمهيد

لم يختر الألوسي الوجوه الأربعة التي جعلها مفهوما للإعجاز القرآني ليتركها من غير بيان أو تقرير لها، بل قام بعد ذلك ببيانها، وإقامة الدليل عليها، والتمثيل لها، ورده لما يناقضها، في مقدمة تفسيره، وفي أثنائه أيضا، وسوف أذكر -لإثبات ذلك-كلامه في المقدمة عنها، ثم أدلل عليها من كلامه في أثناء تفسيره، ثم أذكر بعد ذلك أشهر من سبقه إلى القول بهذه الوجوه، ما استطعت إلى ذلك سبيلا، مصدرا ذلك بتعريف كل وجه من الوجوه على حده، وبالله التوفيق.

المطلب الأول: الوجه الأول من وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي (نظم القرآن)

يعتبر هذا الوجه من أعظم وجوه الإعجاز للقرآن، وأشهرها، وأكثرها تداولا ورأيا لما وقع به الإعجاز، وقد جرى هذا المصطلح قديما على لسان من تكلم عن أسلوب القرآن البليغ، ونمطه البديع الذي لا يدانيه أسلوب، ولا يشبهه كلام، تأكيدا على أنه كلام رب العالمين، الذي أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله.

أولا: تعريف النظم في اللغة والاصطلاح.

أ- تعريف النظم في اللغة.

يفيد هذا الجِذر المكوَّن من هذه الحروف الثلاثة: (النون، والظاء، والميم) معنى الجمع والضم والتأليف للشيء الواحد بعضه إلى بعض، وضم شيء إلى شيء آخر[1].

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٤٣)، ولسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥٧٨).

والنظم جمع الشيء كالخرز واللؤلؤ وغيرهما بعضه إلى بعض في خيط أو سلك واحد[١].

ب- تعريف النظم في الاصطلاح.

وأما في الاصطلاح فيمكن تعريفه بأنه: "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"[٢].

ثانيا: بيان الألوسي لوجه إعجاز القرآن في نظمه ومفهومه عنده.

لم يحظ وجه من وجوه الإعجاز عند الألوسي بما حظي به النظم عنده، فقد بين معناه في مقدمة تفسيره، وأقام الدليل على كونه معجزا، وفي أثناء تفسيره لم يمر بآية مما يمكن أن تكون دليلا على دعواه إلا أشار بها إليه، وأقام الدليل بها عليه.

فقد ذكر الألوسي في بيان كون النظم معجزا أن مراتب تأليف الكلام خمس: الأولى: ضم الحروف بعضها إلى بعض، فتحصل الكلمات الثلاث: الاسم، والفعل، والحرف. الثانية: تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض، فتحصل الجمل المفيدة، ويقال له: المنثور. الثالثة: ضم ذلك إلى بعضٍ ضما له مَبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم. الرابعة: أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له: المُسْجَع. الخامسة: أن يحصل له مع ذلك وزن، ويقال له إن قصد: الشعر. والمنظوم؛ إما محاورة، ويقال له: الخطابة، وإما مكاتبة، ويقال له:

---

(١) ينظر العين للخليل (٨/ ١٦٥)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٤١)، ولسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥٧٨).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص ٢٤٢).

الرسالة. فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام، ولكلٍ من ذلك نظم مخصوص.

والقرآن جامع لمحاسن الجميع بنظم بديع، خال من الخلل، ومشتمل على خواص ليست في سواه، ودليل ذلك أنه لا يصح أن يقال له: رسالة أو خطابة أو سجع، كما يصح أن يقال: هو كلام، والبليغ إذا قرع سمعه فَصَلَ بينه وبين ما عداه من النظم بلا ترديد(١).

وهذا الذي ذكره الألوسي في تقرير الوجه الأول من وجوه الإعجاز، هو كلام الراغب الأصفهاني بنصه في مقدمة تفسيره في الفصل الذي عنونه بـ (فصل في إعجاز القرآن)(٢).

وواضح من كلام الألوسي أنه يرى أن مفهوم النظم عبارة عن ذلك التآخي والتآلف بين الحروف والكلمات والجمل بعضها مع بعض، جامعا محاسن أنواع الكلام كلها، من منثور ومنظوم وغيرها، في أروع أسلوب، وأحسن نسق، لا يوجد في غيره.

وهذا المفهوم للنظم لا يختلف عن مفهومه عند كل ما قال به من العلماء، كما سيأتي.

ثالثا: عناية الألوسي بإبراز وجه إعجاز القرآن الكريم في نظمه أثناء تفسيره.

وقد ظهرت عناية الألوسي بإبراز هذا الوجه من وجوه الإعجاز في غالب تفسيره ، حيث إنه لم يمر بآية وجد فيها بغيته إلا أشار بها إليه، وجعلها دالة عليه، ومن ذلك ما ذكره في نهاية تفسيره لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢] حيث قال:

---

(١) ينظر روح المعاني (١/ ٣٢).

(٢) ينظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٤).

"هذا ولا يخفى ما في هذه الجمل والآيات من التناسق فـ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ أشارت إلى ما أشارت، و ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قررت بعض إشارتها بأنه الكتاب الكامل الذي لا يحق غيره أن يسمى كتابا في جنسه، أي: باب التحدي والهداية، و ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ كالتأكيد لأحد الركنين، و ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ كالتأكيد للركن الآخر، وخلاصته: هو الحقيق بأن يُتحدى به لكمال نظمه في باب البلاغة، وكماله في نفسه وفيما هو المقصود منه"(١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ [هود: ١٧] ذكر أن المراد بالبينة القرآن، وباعتبار هذا المعنى أو على معنى البرهان ذكر الضمير في ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ واختار القول بأن الشاهد الذي يتلو القرآن، -أي: يتبعه-شاهد عظيم، يشهد بكونه من عند الله تعالى شأنه، وهو الإعجاز في نظمه، ثم قال: "ومعنى كون ذلك تابعا له أنه وصفٌ له لا ينفك عنه حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فلا يستطيع أحد من الخلق جيلا بعد جيل معارضته، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"(٢).

ومما يؤكد ذلك أنه ذكر غيره من الأقوال بعده على سبيل الحكاية(٣).

وفي معنى إحكام آيات القرآن من قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١] قال: "أي: نُظمت نظما محكما لا يطرأ عليه اختلال، فلا يكون فيه تناقض، أو

---

(١) روح المعاني (١/ ١١٣).

(٢) المرجع السابق (٦/ ٢٢٨).

(٣) ينظر روح المعاني (٦/ ٢٢٨).

مخالفة للواقع والحكمة، أو شيء مما يخل بفصاحته وبلاغته"[1].

وهكذا نجد الألوسي مكثرا من الاستدلال على هذا الوجه، كلما مر بآية يرى أنها دليل على إعجاز القرآن بنظمه أفصح عن ذلك، ولولا خشية الإطالة لذكرت المزيد، وفيما ذكر دليل على ما لم يذكر.

رابعا: من سبق الألوسي إلى القول بنظم القرآن المعجز.

لم يكن الألوسي أول من قال بأن نظم القرآن هو الوجه الذي وقع به الإعجاز للقرآن الكريم، وإنما سبقه إليه كثير من العلماء، والبيان فيما يلي:

الطبري ونظم القرآن

ومن هؤلاء شيخ المفسرين الطبري، الذي ذكر أن من أشرفِ المعاني التي فضل بها القرآن سائرَ الكتب قبلَه نظمُه العجيب، ورصفُه الغريب وتأليفُه البديع؛ الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباءُ، وكلَّت عن وصف شكل بعضه البلغاءُ، وتحيَّرت في تأليفه الشعراءُ، وتبلَّدت لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرارَ بأنه من عند الواحد القهار[2].

الجاحظ ونظم القرآن

ومن أقدمهم الجاحظ الذي يرى أن العرب تُحُدوا بنظم القرآن، وأن الوجه الذي وقع به الإعجاز هو النظم، وإن كان يزعم مع ذلك أن العرب صُرِفوا عن معارضة القرآن، فقد ذكر أن في القرآن المنزل ما يدلنا على أنه صدقٌ، وهو نظمُه البديعُ، الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك

---

(١) المرجع السابق (٦/ ١٩٠).

(٢) ينظر جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ١٩٩).

من الدلائل[١].

وذكر مرة أننا ولا بد من أن نذكر في القرآن أقسام تأليف جميع الكلام، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج[٢].

هذا فضلا عن أن الجاحظ له كتاب بعنوان (نظم القرآن) ألفه في الرد على شيخه أبي إسحاق النظَّام لما أنكر النظم المعجز، وإن وافقه في القول بالصرفة، إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا[٣].

وقد جاء في وصف هذا الكتاب أنه: "لا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ"[٤].

الخطابي ونظم القرآن

ومن هؤلاء العلماء أيضا أبو سليمان الخطابي الذي ذهب إلى أن النظم أحد الأركان الثلاثة التي وقع بها الإعجاز مجتمعة، وهي التي يقوم بها الكلام، وهي: (اللفظ الحامل للمعنى، والمعنى القائم باللفظ، والرابط لهما وهو النظم) واجتماع الثلاثة في القرآن هي سبب عجز البشر عن الإتيان بمثله؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماءِ اللغة العربية ولا بألفاظها

---

(١) ينظر الحيوان (٤/ ٨٩، ٩٠).

(٢) ينظر البيان والتبيين (١/ ٣٠٤).

(٣) ينظر مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم (ص ٤٩).

(٤) الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد لأبي الحسين الخياط (ص ١٥٤، ١٥٥).

التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، كما أن أَفهامهم لا تدرك جميع معاني الأَشياء المحمولة على تلك الأَلفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأَفضل عن الأَحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإذا تأمل الإنسان القرآن وجد هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا يرى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا يرى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاءَ على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها،...

ثم انتهى إلى أن القرآن إنما صار معجزًا لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني، من توحيد الله تعالى، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه،...ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر، ولا تبلغه قُدَرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله[1].

ومن هذا نفهم أن النظم عند الخطابي هو عبارة عن الوجوه التي يُربَط بها بين الألفاظ والمعاني من حسن التأليف والارتباط، وشدة التلاؤم

(١) ينظر بيان إعجاز القرآن (ص ٢٦- ٢٨).

والتشاكل، بعيدا عن التناحر والتنافر، والله أعلم.

الباقلاني ونظم القرآن

ومن هؤلاء أيضا أبوبكر الباقلاني الذي كان مفهوم الإعجاز عنده عبارة عن حكاية أقوال السابقين فيه، وأنه يرجع إلى ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب، مما لا يقدر عليه البشر، ومن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩] وقد فعل ذلك.

الوجه الثاني: ما تضمنه من القصص القرآني عن الأمم السابقة والقرون الغابرة، وما كان منهم مع أنبيائهم عليهم السلام، مع كون النبي صلى الله عليه وسلم أميًا لا يكتب ولا يقرأ، مما يؤكد أنه لا علم له بها إلا عن طريق الوحي، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة(١).

ثم ذكر الباقلاني في بيان وجوه النظم القرآني التي وقع بها الإعجاز ذكر عشرة وجوه(٢).

---

(١) ينظر إعجاز القرآن (ص ٣٣- ٣٥).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص ٣٥- ٤٧).

وقال الباقلاني: "فأما شأو نظم القرآن، فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدي به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"[1].

عبد القاهر الجرجاني ونظم القرآن

ومن أشهر من تكلم عن النظم شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني الذي ألف كتابه دلائل الإعجاز لإثبات هذه النظرية، وجعله الوجه الذي وقع به التحدي، وهو الذي وقع به إعجاز القرآن. فقد ذكر عبد القاهر أنه لابد أن يكون العرب الذين تُحُدُّوا بالقرآن قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام عليه كانوا قد أتوا بمثل القرآن، وإلا لبطلت دعوى الإعجاز، وأن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفًا قد تجدد بالقرآن، وأمر لم يُوجد في غيره، ولم يُعرف قبل نزوله، لذا لا يجوز أن يكون ذلك الوصف في الكَلِم المفردة؛ لأن الألفاظ كانت موجودة ومعروفة عندهم، ولا في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة، ولا في ترتيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تُحُدُّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زِنَةِ كلماتِ القرآن، ولا في الإتيان بكلام له مقاطع وفواصل، كالذي تراه في القرآن؛ لأنه أيضًا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن، ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يُلْتَقَ في حروفه ما يَثْقُلُ على اللسان، وقد عد عبد القاهر هذا الذي حكاه من قبيل الشناعات[2].

ثم بين أنه إذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما ذكره، لم يَبْقَ إلا أن يكون في النظم؛ لأنه ليس بعد ذلك إلا النظم والاستعارة، ولا يمكن أن تُجْعَلَ الاستعارة الأصلَ في الإعجاز، لأن ذلك

---

(١) إعجاز القرآن (ص: ١١٢).

(٢) ينظر دلائل الإعجاز (ص: ٣٨٥- ٣٩٠).

يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها ثبت أن النظم مكانُه الذي ينبغي أن يكون فيه[١].

وقد ذكر عبد القاهر في مقدمة كتابه هذا أنه "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض... "إلخ[٢].

ابن عطية ونظم القرآن

وهذا الوجه اختيار ابن عطية، مع صحة معاني القرآن وتوالي فصاحة ألفاظه، وأنه هو الذي عليه الجمهور والحذاق، وأن سبب إعجازه بهذا الوجه عنده أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة[٣].

وأكتفي بهذا القدر من العلماء الذين قالوا بنظم القرآن قبل الألوسي خشية مزيد من الإطالة.

خامسا: من أنكر نظم القرآن المعجز

وإذ قد انتهينا من ذكر من قال بكون نظم القرآن معجزا فحرِيّ بنا أن نذكر من أنكر ذلك. وبيان ذلك فيما يلي:

---

(١) ينظر المرجع السابق (ص: ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) المدخل في دلائل الإعجاز من إملائه (ص: ٤ - ٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٢).

النظام وإنكار نظم القرآن

وكان من أشهر من أنكر نظم القرآن المعجز أبو إسحاق النظَّام المعتزلي؛ وحجته في ذلك أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل نظم القرآن، ولم يكن ممنوعا بالنسبة لهم، وإنما الإعجاز في صرف الله تعالى لهم عن المعارضة، مع الإخبار بالغيب.

حكى أبو الحسن الأشعري عنه أنه خالف المعتزلة في القول بالنظم المعجز، وأنه قال: "الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم"(١).

وحكى عنه ذلك أيضا جماعة من علماء المعتزلة، منهم أبو القاسم البلخي(٢)، وأبو الحسين الخياط نقلا عن ابن الراوندي، ثم نقل عنه منكرا عليه ذلك بقوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]"(٣)، أي: هذا القول الذي يفيد قدرة الخلق على معارضة القرآن ترده ردا صريحا الآية المذكورة.

وقد ذكرت من قبل أن تلميذه الجاحظ رد عليه في هذا الزعم، وألف في ذلك كتابه (نظم القرآن) إلا أنه لم يصل إلينا.

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص: ٢٢٥).

(٢) ينظر ذكر المعتزلة من كتاب المقالات لأبي القاسم البلخي، مطبوع أول كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار (ص: ١٣).

(٣) ينظر الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (ص ٢٧).

المرتضى وإنكار نظم القرآن

وكان ممن ذهب هذا المذهب المرتضى الشيعي حيث زعم -مدللا على عدم إعجاز النظم القرآني- أن الذي يدلّ على أن نظم القرآن ليس بمعجز بنفسه أنا نعلم أن كل قادر على الكلام العربي، ومتمكن من تقديم بعضه على بعض، وتأخير بعضه عن بعض، لا يعجز أن يحتذي نظم سور القرآن بكلام لا فصاحة له، بل لا فائدة فيه، ولا معنى تحته، فإن ذلك لا يضر ولا يخل بالمساواة في طريقة النظم(١).

والظاهر أنه تأثر بالنظَّام في قوله هذا، ويُرد عليه بما رَدَّ به أبو الحسين الخياط نقلا عن ابن الراوندي على النظَّام بالآية المذكورة من سورة الإسراء.

وقد أمعن في الغلو فزعم مرة -في معرض إبطال هذا الوجه-أن القرآن لا نظم له حقيقة ولا تأليفا، وإنما أطلق عليه ذلك من قبيل الاستعارة؛ لوقوع بعضه في إثر بعض، فشبّه لذلك بتأليف الجواهر(٢).

ولا يخفى ما فيه من البطلان، ونعوذ بالله مما هو من أثر الشيطان.

---

(١) ينظر الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) (ص: ٤٦).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص: ١٠٧، ١٠٨).

المطلب الثاني
الوجه الثاني من وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي
(بلاغة القرآن)

ثاني أشهر وجوه الإعجاز القرآني على العموم بلاغته، وهو أيضا يأتي في هذه المرتبة الثانية عند الألوسي، وقد حظي عنده بمكانة عظيمة، تجلت في مواضع كثيرة من تفسيره.

أولا: تعريف البلاغة في اللغة والاصطلاح.

أ- تعريف البلاغة في اللغة.

ترجع مادة (ب ل غ) في اللغة إلى بلوغ الشيء والوصول والانتهاء إلى أقصاه ومنتهاه، أو مشارفته بحق المقاربة، سواء أكان هذا الشيء مكانا أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة، وسميت البلاغة التي يُمدح بها فصيح اللسان بهذا الاسم لأنه يبلغ بها ما يريده(١).

ب- تعريف البلاغة في الاصطلاح.

وأما في الاصطلاح فقد عُرِّفت البلاغة بعدة تعريفات(٢) أشهرها أنها: "مطابقة الكلام لمتقضى الحال مع فصاحته"(٣).

ومما يجدر ذكره هنا ولا يمكن إغفاله تعريف الفصاحة. وهي في اللغة: تدور حول الخلوص والنقاء من الشوب. ومن ذلك اللسان الفصيح، أي: الطليق، والكلام الفصيح، أي: العربي، وأصلها من أفصح

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٣٠١، ٣٠٢)، والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٤٤)، ولسان العرب لابن منظور (٨/ ٤١٩).

(٢) ينظر في ذلك الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (ص: ١٠)، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي (ص: ٣١).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (١/ ٤١).

اللبنُ إذا سكنت رِغوته، وأفصح الرجل، إذا تكلم بالعربية، وفَصُحَ: جادت لغته فلا يلحن[١].

وأما في الاصطلاح: فقد عرفت بأنها: "الظهور والبيان"[٢]، وبأنها: "خلوص الكلام من التعقيد"[٣].

والفرق بينهما: "أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها: بليغة، وإن قيل فيها: فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا"[٤].

ثانيا: بيان الألوسي لوجه إعجاز القرآن في بلاغته ومفهومها عنده.

وكما فعل الألوسي في تقرير نظم القرآن المعجز فعل في تقرير بلاغته المعجزة وتأكيدها أيضا، فقد ذكر أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في البيان متفاوتة، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجاري الطلق الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول: أعلاها، والثاني: أوسطها، والثالث: أدناها وأقربها، وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام أوفر حصة، وأخذت من كل نوع أعظم شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما كالمتضادين، فكان اجتماع الأمرين فيه

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٥٠٦، ٥٠٧)، والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٦٣٧).

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص: ٥٨).

(٣) نهاية الإيجاز للفخر الرازي (ص: ٣١).

(٤) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص: ٥٩).

مع نُبُوِّ كل منهما عن الآخر فضيلة ومنزلة جليلة، وقد خُص بذلك القرآن كما لا يخفى على ذوي الفطر السليمة، ومن كان له في علم البلاغة إتقان(١).

هذا كلام الألوسي، وهو كلام الخطابي في تقرير مذهب الأكثرين من علماء أهل النظر في أن إعجاز القرآن من جهة البلاغة، وبعد أن ذكر أنهم في كيفيتها يَعْرِض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، وأنه وجد عامة أهل هذه المقالة قد جَرَوا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره، ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيرَه من الكلام. وقال: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفى من داءِ الجهل به بيان إعجاز القرآن، وإنما هو إشكال أَحيل به على إبهام(٢).

وظاهر من كلام الألوسي أن بلاغة القرآن عنده تعني حيازتها من أجناس الكلام الفاضل المحمود أعلاها، ومن مراتب البيان الفصيحة ذروتها، في جمع بين فخامة الألفاظ وعذوبتها في آن واحد، وهما كالمتضادين لا يجتمعان في أي كلام، ومع هذا فقد اجتمعا في بلاغة القرآن في تعانق تام وتآلف بديع منقطع النظير، بحيث لا تجد في ذلك أي نوع من التنافر والتضاد.

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٢، ٣٣).

(٢) ينظر بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٢٣- ٢٥).

ثالثا: عناية الألوسي بإبراز وجه إعجاز القرآن في بلاغته أثناء تفسيره.

وقد حرص الألوسي على إبراز هذا الوجه من وجوه الإعجاز في تفسيره كلما مر بآية مما اشتملت على وجه من وجوه البلاغة.

كما فعل عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وبعد أن ذكر بعض وجوه الاختلاف المنفية عن القرآن الكريم قال: "فلما تجاوب كلُّه بلاغةً معجزةً فائقة لقُوَى البلغاء وتناصرَ صحةَ معانٍ وصدقَ أخبارٍ عُلِمَ أنه ليس إلا من عند قادرٍ على ما لا يقدر عليه غيره، عالمٍ بما لا يعلمه سواه، انتهى"(١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩] وبعد أن ذكر أن سر إسقاط الفاء من ﴿إِذَا﴾ الشرطية وإثباتها في جوابها ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ فيها، وذلك عكس قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤] وهو أن آية يونس عليه السلام لما سيقت جوابا عن استعجالهم العذابَ الموعود -يعني في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨]- اعتُنِيَ بأمر الشرطية ولزومها كمال الاعتناء، فأتى بها غيرَ متفرِّعة على شيء، كأنها من الأمور الثابتة في نفسها الغير المتفرعة على غيرها، وقَوِيَ

(١) روح المعاني (٣/ ٨٩، ٩٠)، وهو كلام الزمخشري في تفسيره (١/ ٥٤٠) وفيه: (فائتة).

لزومُ التالي فيها للمقدم بزيادة الفاء التي بها يُؤتَى للربط في أمثال ذلك، ولا كذلك آية الأعراف... ، ثم أشار إلى ضعف ما ذكره بعضهم من أن السر في اختلاف الآيتين الإشارة منه تعالى إلى جواز الأمرين عربية، وأنه لم يعلم أن القرآن الكريم لم ينزل معلما للعربية مبينا لقواعدها وشارحا لما يجوز فيها وما لا يجوز، بل نزل معجزا بفصاحته وبلاغته وما تضمنه من الأسرار أقواما يستشفى بآرائهم، ويعتمد عليها في ذلك الشأن[1].

فالألوسي يرى أن القرآن الذي أعجز من هذه صفتهم لا تقبل معه مثل هذه الوجوه السطحية، والله أعلم.

رابعا: من سبق الألوسي إلى القول ببلاغة القرآن في وجوه الإعجاز.

وكما سُبِق الألوسي إلى القول بنظم القرآن المعجز فقد سبق أيضا إلى القول ببلاغة القرآن المعجزة، وفيما يلي بيان ذلك.

الخطابي وبلاغة القرآن

سبق أن ذكرت أن الخطابي حكاه عن الأكثرين.

الرماني وبلاغة القرآن

وتعتبر البلاغة وجها من وجوه إعجاز القرآن السبعة عند أبي الحسن الرماني المعتزلي وهي: "ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة"[2].

ثم جعل البلاغة على ثلاث طبقات: أعلى طبقة، وأدنى طبقة، وطبقة وسطى، وأن بلاغة القرآن أعلاها، وهي معجزة، وما كان منها دون ذلك

---

(١) ينظر روح المعاني (٦/ ١٢٥).

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (ص: ٧٥).

فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس[١].

القرطاجني وبلاغة القرآن

وقد ذهب إلى هذا الوجه حازم القرطاجني، وسماه استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، في حين أن كلام العرب لا يكون كذلك إلا في النذر اليسير المعدود[٢].

يحيى بن حمزة العلوي وبلاغة القرآن

وهذا الوجه يعتبر أحد الوجوه الثلاثة المختارة عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي وجها في الإعجاز، وهي: فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وجودة النظم. [٣].

الراغب الأصفهاني وفصاحة القرآن

ومما يدخل تحت هذا الوجه ما ذكره الراغب الأصفهاني في مقدمة تفسيره من أن إعجاز القرآن في فصاحته يرجع إلى النظم المخصوص الذي صار به القرآن معجزا، ولا يرجع إلى شيء من اللفظ ولا المعنى، وذلك أن ألفاظه ألفاظهم، قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١، ٢] تنبيهًا على أن هذا الكتاب

---

(١) ينظر الموضع نفسه من المرجع السابق.

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠١)، وليس هذا الكلام في القدر المطبوع من كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني، وإنما هو في ملحق في آخر الكتاب للنصوص التي نقلها العلماء منه وليست فيه، ومنها ما نقله عنه الزركشي في البرهان. (ينظر ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) ينظر الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣/ ٢٢٤، ٢٢٥).

مركب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام، كما أن كثيراً من معانيه موجود في الكتب المتقدمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء:١٩٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:١٣٣] وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه النظم أو بغيره، وسواء كان مُورَداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى، أو بإشارة أو بعبارة، وعلى هذا فبالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، أو الخطبة خطبة[1].

الفخر الرازي وفصاحة القرآن

ومما يدخل تحت هذا الوجه أيضا ما ذكره الفخر الرازي من أن إعجاز القرآن في فصاحته، وقد جعل عجز العرب عن معارضة القرآن دليلا على كونه معجزا، إذ محال أن يتركوا المعارضة مع قدرتهم عليها ويلجؤوا إلى الحرب التي فيها هلاكهم، وأما عن وجه إعجازه فقد ذكر فيه أربعة وجوه، وهي القول بالصرفة، وعزاه للنظام، ووجه من قال: إن الإعجاز في أن أسلوب القرآن مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل، ووجه من جعل الإعجاز في أن ليس فيه اختلاف وتناقض، ووجه من قصر وجه الإعجاز على اشتماله على الغيوب، وقد أبطلها كلها[2].

ثم قال: "ولما بطلت هذه المذاهب ولابد من أمر معقول حتى يصح

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٤، ٤٥).

(٢) ينظر نهاية الإيجاز (ص: ٢٦- ٢٨).

التحدي به وعجز الغير عنه ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزا هو الفصاحة"[١].

ولم يرد الرازي من اختياره الفصاحة وجها لإعجاز القرآن الفصاحة بمعناها الاصطلاحي التي تتعلق بالألفاظ وسلاستها فحسب، لا، وإنما أراد الفصاحة والبلاغة والنظم أيضا، وكيف لا؟ والكتاب إنما هو اختصار لكتابي عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، المؤصل لقضية النظم، والمخصص لها جل مباحث كتابيه[٢].

وبهذا يظهر أن بلاغة القرآن وجه قديم من وجوه إعجازه، ولم يكن الألوسي أول من قال به. والله أعلم.

(١) المرجع السابق (ص: ٢٨).

(٢) ينظر إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف (ص: ١٩٩).

المطلب الثالث
الوجه الثالث من وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي
(الإخبار بالغيب)

ثالث وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي إخباره بالغيب، وقد كان محل اعتبار كبير عنده، إذ كان كلما مر بآية مما اشتملت على غيب أشار إلى أنه مما يدل على إعجاز القرآن الكريم.

أولا: تعريف الإخبار بالغيب في اللغة والاصطلاح.

أ- تعريف الإخبار بالغيب في اللغة.

هذا المصطلح مركب من كلمتين: الأولى: الإخبار، والثانية: الغيب.

أما الإخبار في اللغة فهو مصدر الفعل: أَخْبَرَ، وهو الإعلام بما حصل من الخبر[1]، أو "هو تكلمٌ بكلامٍ يسمى خبرا، والخبر: اسم لكلام دال على أمر كائن أو سيكون، والإخبار كما يتحقق باللسان يتحقق بالكتابة والرسالة؛ لأن الكتاب من الغائب كالخطاب، ولسان الرسول كلسان المرسِل، وصح أن يقال: أخبر الله بكذا، وإن كان ذلك بالكتاب"[2].

وعلى هذا فالإخبار يطلق على الإخبار بما جرى في الماضي، وعلى الإخبار بما سيجري في المستقبل، كما أنه يكون باللسان ويكون بالكتابة والرسالة.

والفرق بين الإعلام والإخبار هو أن الإعلام يكون بالتعريض لأن يعلم الشيء، وقد يكون بوضع العلم في القلب؛ لأن الله تعالى قد علمنا ما اضطررنا إليه، ويكون الإعلام بنصب الدلالة، والإخبار هو الإظهار للخبر

---

(١) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٢٧٣).

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٤).

علم به أو لم يعلم، ولا يكون الله مخبرا بما يحدثه من العلم في القلب[١].

وأما الغيب في اللغة فهو مصدر الفعل غاب، وهو كل ما غاب والغين والياء والباء يدل على تستُّر الشيء عن العيون، ومن ذلك الغيب، وهو ما غاب مما لا يعلمه إلا الله تعالى، ومنه الغَيبة والغيابة، وهي المكان الهابط من الأرض؛ لأنه يغاب فيها، والغابة كذلك ومنه الغِيبة، وهي الوقيعة في الناس؛ لأنها لا تقال إلا غيبتهم[٢].

ب- تعريف الإخبار بالغيب في الاصطلاح.

يمكن أن نعرف هذا الوجه بأنه إعلام الله تعالى الناس بما كان من الأخبار الماضية والوقائع البالية، وبما يكون بعد الإخبار به من الحوادث الآتية والوقائع القادمة إلى يوم القيامة، وبما يكون يوم القيامة أيضا.

ثانيا: بيان الألوسي لوجه إعجاز القرآن في الإخبار بالغيب ومفهومه عنده.

ومثل ما فعل الألوسي في تقرير الوجهين السابقين من وجوه الإعجاز القرآني فعل في تقرير الوجه الثالث منها، فقد بين أن إعجاز القرآن في اشتماله على الغيب لأنه يتضمن أربعة أنواع من الغيب:

الأول: وهو الذي يحكم العرف بكثرته، وهو أخبار القرون الماضية، والأمم البادية، والشرائع الداثرة، مما كان لا يَعلم منه القصة الواحدة إلا الفذُ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك وتتبعه، فيورده

---

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٩٦).

(٢) ينظر الصحاح للجوهري (١/ ١٩٦)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٦٨٨)، ولسان العرب لابن منظور (١/ ٦٥٤).

(٣) ينظر معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٣).

القرآن على وجهه، ويأتي به على نصه، ومن المعلوم أن من أتى به أمي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله تعالى عليه وسلم.

الثاني: الإعلام بما في ضمائر الناس سواء في ذلك المؤمنون والكافرون من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل، ومثَّل له في جانب المؤمنين بما حكاه الله تعالى عن بني سلمة وبني حارثة من الأنصار يوم أحد في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢]

ومثَّل له في جانب الكافرين بما حكاه الله تعالى عن اليهود في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨] فقد كانوا يسلِّمون عليه صلى الله عليه وسلم بقولهم: السام عليك أبا القاسم، والسام الموت، وكانوا يقولون فيما بينهم: لو كان محمد صادقا في نبوته لعجل الله عقوبتنا بذلك.

الثالث: الإعلان بالحوادث المستقبلة في الأعصار الآتية، ومثل له بإخبار القرآن بغلبة الروم فارسَ بعد أن غُلبوا منهم. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ [الروم: ١ - ٤].

الرابع: الإخبار عن أقوام في قضايا أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على فعلها، كما أخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدا، فما

تمناه أحد منهم. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥].

وأكد الألوسي على أن القرآن اختُصَّ من بين الكتب بأخبار الغيب، حتى إن أقصر سورة فيه -وهي الكوثر- تشير إلى أربعة أخبار عن الغيب مع أنها ثلاث آيات: الأول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١] إذا أريد به كما في بعض الروايات كثرة الأتباع، الثاني: في قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] حيث أريد به كما هو الظاهر الأمر بالنحر، فهو إشارة إلى اليسار حتى يمكنه الإقدام عليه، والثالث والرابع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ٣] حيث صرح ورمز بأن شانئك لا أنت أبتر لا عقب له، فكان كما أخبر، ولا شك عند كل عاقل أن مجموع ما ذكرنا يعجز عنه البشر(١).

وبهذا يكون الألوسي قد جمع في مفهوم الغيب ما لم يجمعه غيره، كما سيأتي.

ثالثا: عناية الألوسي بإبراز وجه إعجاز القرآن في إخباره بالغيب أثناء تفسيره.

ذكر الألوسي رحمه الله أن وقوع الأخبار الغيبية في القرآن حسبما أخبر القرآن دليل على أنها وحي من عند الله تعالى، ومثل لذلك بقوله تعالى إخبارا عما سيقول المشركون: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ

(١) ينظر روح المعاني (١/ ٣٣).

ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وذلك قبل نزول قوله تعالى حكاية لما قالوا بعد وقوعه منهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [النحل: ٣٥][1].

وقد أكد على أن الإخبار بالغيب وجه من وجوه إعجاز القرآن، وليس الإعجاز منحصرا فيه، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: ٢٧] في بيان وجه مناسبته لما قبله من قصة أصحاب الكهف: "أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الكهف وكانت من المغيبات بالإضافة إليه صلّى الله عليه وسلّم، ودل اشتمال القرآن عليها على أنه وحي معجز من حيثية الاشتمال -وإن كانت جهة إعجازه غير منحصرة في ذلك- أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه بقوله سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ﴾ إلخ"[2].

وقد ذكر الألوسي أيضا أن الإخبار بالغيب وجه من وجوه إعجاز القرآن عند كثير من العلماء، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: "وقد نص غير واحد على أن وقوع ما أخبر الله تعالى به من المغيبات من وجوه الإعجاز لكلامه، ولم يكن الإعجاز به

(١) ينظر روح المعاني (٤/ ٢٩٣).
(٢) المرجع السابق (٨/ ٢٤٣).

فقط كما في قول مضعَّفٍ"[1].

ولم يمر بآية فيها إخبار بالغيب إلا أكد على كونها دالة على إعجاز القرآن، كما فعل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] حيث قال: "وفي هذه الآية دلالة واضحة على نبوة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لكونها من الإخبار بالغيب الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبُتوا، ولم ينالوا شيئا منهم، ولم تخفق لهم بعد ذلك راية، ولم يستقم لهم أمر، ولم ينهضوا بجناح"[2].

وقد مثل الألوسي -كما سبق- في مقدمة تفسيره في بيانه لإعجاز القرآن بالإخبار بالغيب بما أخبر به القرآن مما يجول في ضمائر المؤمنين والكافرين مما لم يطلع عليه أحد بقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨] كما سبق.

ثم ذكر عند تفسيره للآية الأولى: ما عزاه لابن عباس وجابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- وغيرهما أن المراد بالطائفتين فرقتان من

---

(١)روح المعاني (٤/ ٢٩٣).

(٢)المرجع السابق (٢/ ٢٤٥).

المسلمين، وهما حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي عسكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يعني: يوم أحد، وأن الطائفتين همتا بالضعف والجبن عن القتال والانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوا انخذال عبد الله بن أبيّ ابن سلول مع من معه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم(١).

ولم يفت الألوسي استظهار أن هذا الهم لم يكن عزم وتصميم على مخالفة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومفارقته؛ لأن ذلك لا يصدر مثله عن مؤمن، بل كان مجرد حديث نفس ووسوسة، وأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: ناصرهما، فهي مفيدة لاستبعاد فشلهما مع كونهما في ولاية الله تعالى(٢).

ويؤكد ذلك ما رُوِى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بَنِي سَلِمَةَ، وَبَنِي حَارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ

(١) ينظر روح المعاني (٢/ ٢٥٨)، وينظر أيضا جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٧/ ١٦٥- ١٦٩)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ١١١). وهذا قول جمهور المفسرين. [ينظر التفسير البسيط للواحدي (٥/ ٥٦٤)، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٣/ ٣٢٨)].
وذكر الألوسي قولا آخر في المراد بالطائفتين، وهو ما عزاه للجبائي أنهما طائفة من المهاجرين، وطائفة من الأنصار. [ينظر التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي (٢/ ٥٧٧)].
(٢) روح المعاني (٢/ ٢٥٨، ٢٥٩).

وَلِيُّهُمَا﴾"(١).

وعند تفسيره للآية الثانية ذكر في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ أنهم يقولون فيما بينهم، أو في أنفسهم حقيقة: "هلا يعذبنا الله تعالى بسبب ذلك لو كان محمد صلّى الله تعالى عليه وسلم نبيا، أي: لو كان نبيا عذبنا الله تعالى بسبب ما نقول من التحية"(٢).

وذلك أن اليهود كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلمون عليه بقولهم: السام عليك، يدعون عليه بالموت، كما رُوِي عن عائشة رضي الله عنها: "أَنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ، أَوِ الفُحْشَ» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ».

وفي رواية لمسلم في آخر الحديث: "وَزَادَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب المغازي، باب ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ (٥/ ٩٦) رقم (٤٠٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم (٤/ ١٩٤٨) رقم (٢٥٠٥).

(٢) روح المعاني (١٤/ ٢٢١).

جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ"[1].

وذكر الألوسي في التمثيل للإخبار بالغيب المستقبلي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: ١-٤]

ثم قال الألوسي بعد أن ذكر من الأحاديث الشريفة ما يفسر هذه الآيات الكريمة ويصدقها: "وكان ذلك من الآيات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عزّ وجلّ لما في ذلك من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه الله تعالى العليم الخبير، وقد صح أنه أسلم عند ذلك ناس كثير"[2].

وقد مثل للإخبار بالغيب المستقبلي بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥].

ثم قال عند تفسيره لها: "وهذه الجملة إخبار بالغيب، ومعجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيها دليل على اعترافهم بنبوّته صلى الله

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يُستجابُ لنا في اليهود، ولا يُستجابُ لهم فينا» (٨/ ٨٥) رقم (٦٤٠١)، ومسلم في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٤/ ١٧٠٦، ١٧٠٧) رقم (٢١٦٥).

(٢) روح المعاني (١١/ ٢١).

تعالى عليه وسلم؛ لأنهم لو لم يتيقنوا ذلك ما امتنعوا من التمني"[١].

وبهذا يظهر أن الألوسي اهتم بإبراز هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم في ثنايا تفسيره، كلما مر بآية مما اشتمل على أي نوع من أنواع الغيب التي ذكرها، وفيما ذكر دلالة على ما لم يذكر.

الفرق بين الإخبار بالغيب والتنجيم

وقد فرَّق رحمه الله بين الإخبار بالغيب في حقه صلى الله عليه وسلم وبين التنجيم في معرض رده على شبهة من يقول: "القول باطلاعه صلّى الله عليه وسلم على ما ذُكر من شأن الأجرام العلوية بأن فيه فتح باب الشبهة في كون إخباره صلّى الله عليه وسلم بالغيوب من الوحي لجواز أن تكون من أحكام النجوم على ذلك القول".

ثم أجاب عنه "بأن الشبهة إنما تتأتى لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام رصد ولو مرة كوكبا من الكواكب، وحقق منزلته، وأخبر بغيب، إذ مجرد العلم بأن لكوكب كذا حكم كذا إذا حل بمنزلة كذا لا يفيد بدون معرفة أنه حل في تلك المنزلة، فحيث لم يثبت أنه صلّى الله عليه وسلم فعل ذلك لا يفتح باب الشبهة"[٢].

وواضح أن الألوسي رحمه الله يدافع كثيرا عن كون الإخبار بالغيب معجزة له صلى الله عليه وسلم، وأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن عنده.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٢٨).

(٢) روح المعاني (١٢/ ١١٧).

رابعا: من سبق الألوسي إلى القول بالإخبار بالغيب المعجز.

قد ذكر الألوسي أن الإخبار بالغيب وجه من وجوه إعجاز القرآن عند كثير من العلماء، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: "وقد نص غير واحد على أن وقوع ما أخبر الله تعالى به من المغيبات من وجوه الإعجاز لكلامه، ولم يكن الإعجاز به فقط كما في قول مضعَّفٍ"(١).

وبتتبع مذاهب العلماء في الوجه الذي وقع به الإعجاز نجد أن كثيرا منهم عد الإخبار بالغيب عموما أو بعض أنواعه وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ومن هؤلاء من يلي ذكرهم.

الرماني والإخبار بالغيب

وممن اعتبر الإخبار بالغيب وجها من وجوه الإعجاز القرآني: الرماني المعتزلي، إلا أنه اقتصر على نوع واحد منه، وهو الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، وهو وجه من سبعة أوجه وقع بها الإعجاز، كما سبق ذكره(٢).

الخطابي والإخبار بالغيب

وكان الخطابي قد ذهب إلى كون الإخبار بالغيب نوعا من أنواع إعجاز القرآن، لا أنه الوجه الذي وقع به الإعجاز فحسب؛ وذكر في معرِض رده على من زعم ذلك أن الإخبار بالغيب ليس بالأمر العام

---

(١) روح المعاني (٤/ ٢٩٣).

(٢) ينظر النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص ٧٥، ١٠٩- ١١١).

الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أَحد من الخلق أَن يأتي بمثلها، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣] من غير تعيين، فدل على أَن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه(١).

ولما كان الخطابي -كما سبق- قد ذهب إلى أن أركان الإعجاز ثلاثة، وهي: (اللفظ، والمعنى، والنظم) أدرج الإخبار بالغيب بمعنييه الماضي والمستقبلي تحت ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أصح المعاني، مثل توحيده سبحانه وتنزيهه. . . إلخ.

الباقلاني والإخبار بالغيب

والإخبار بالغيب من وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني، الذي جعل - كما سبق- وجوه الإعجاز ثلاثة، اثنان منها في الإخبار بالغيب، الأول في الغيب المستقبلي، والآخر في الغيب الماضي، وثالثها في بديع نظم القرآن.

القاضي عياض والإخبار بالغيب

وقد عد القاضي عياض من أوجه إعجاز القرآن الأربعة التي اختارها وجهين منها في الإخبار بالغيب، الأول: الغيب المستقبلي، وقد وقع على الوجه الذي أخبر به القرآن، الثاني: الغيب الماضي المتعلق بأخبار الأمم السابقة مما لا يعرفه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويعلمون صدقه في ذلك، وقد علموا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب(٢).

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٢٣، ٢٤) بتصرف.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٦٨، ٢٧٠).

وبهذا يظهر أن العلماء اختلفوا في تحديد مفهوم هذا الوجه من وجوه الإعجاز، فمنهم من قصره على الغيب المستقبلي، كالرماني، ومنهم من جمع بين الغيب الماضي والمستقبلي، كالخطابي والباقلاني والقاضي عياض، ولم يجمع أحد من العلماء من أنواع الغيب ما جمع الألوسي من الأنواع الأربعة المذكورة فيما أعلم.

خامسا: من أنكر هذا الوجه من وجوه الإعجاز.

الذي ظهر لي من خلال النظر في أقوال العلماء في هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني أنهم لم يعترضوا على كون الإخبار بالغيب وجها من وجوه الإعجاز، وإنما كان اعتراضهم على كونه الوجه الذي وقع به الإعجاز بمعزل عن الوجوه الأخرى، ولعل فيما ذكر من كلام الرماني والخطابي والباقلاني دليل على ذلك، حيث عدوه وجها من الوجوه، ولم يحصروا وجوه الإعجاز فيه.

ولما حكى الفخر الرازي -كما سبق-أربعة من وجوه الإعجاز التي قيلت في القرآن الكريم، وأبطلها كلها؛ لينتهي إلى القول بأن الوجه في كون القرآن معجزا هو الفصاحة، وكان قد ذكر منها قول" من قَصَرَ وجهَ الإعجاز على اشتماله على الغيوب" قال: "وهو باطل؛ لأن التحدي قد وقع بكل سورة، والأخبار عن الغيوب لم يوجد في كل سورة"[1].

وقد ذكر الزركشي من وجوه إعجاز القرآن اثني عشر وجها، وذكر في الوجهين الثالث والرابع منها: "ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب" و "ما تضمن من إخباره عن قصص

(١) ينظر نهاية الإيجاز (ص: ٢٨).

الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها" وذكر أن كل قول رد "بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها" ثم قال: "وهو باطل؛ فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها".

ثم قال معقبا على القولين جميعا: "نعم هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز، لا أنه منحصر فيه"(١).

ولم أجد أحدا -فيما أعلم- اعتبر الإخبار بالغيب الوجه الوحيد الذي وقع به إعجاز القرآن -مع قوله بالصرفة- سوى ما كان من النظام المعتزلي، فيما حكاه عنه أبو الحسن الأشعري وغيره، كما سبق(٢).

ولعل الألوسي أشار بقوله السابق ذكره إلى تضعيفه، وهو قوله: "وقد نص غير واحد على أن وقوع ما أخبر الله تعالى به من المغيبات من وجوه الإعجاز لكلامه، ولم يكن الإعجاز به فقط كما في قول مضعَّفٍ"(٣)، والله أعلم.

---

(١) البرهان (٢/ ٩٥، ٩٦) بتصرف، وفي الكتاب المطبوع: (إلا أنه منحصر فيه) وهو خطأ ظاهر؛ لتعارضه مع أول الكلام، والله أعلم. ثم وجدته هكذا مصححا في طبعة دار المعرفة ببيروت للبرهان (٢/ ٢٢٨).

(٢) وينظر أيضا إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف (ص: ١٣٣).

(٣) روح المعاني (٤/ ٢٩٣).

المطلب الرابع
الوجه الرابع من وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي
(موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى)

رابع وجوه الإعجاز القرآني عند الألوسي موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وهو يعني في الظاهر -والله أعلم- إعلاء شأن العقل، ودعوة الإنسان إلى استعماله واستغلاله الاستغلال الأمثل؛ ليستطيع به التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والضار والنافع، والصالح والفاسد. . . إلخ. وهو يعني أيضا اشتمال القرآن على أتم المعاني، وأكمل التشريعات، وأنسبها لكل العصور، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢].

أولا: بيان الألوسي لوجه إعجاز القرآن في موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، ومفهوم ذلك عنده.

جعل الألوسي سبب هذا الوجه من وجوه الإعجاز اشتماله على أشياء كثيرة، منها: توحيد الله تعالى وتنزيهه، والدعاء إلى طاعته، وبيان طرق عبادته من تحليل وتحريم، ووعظ وتعليم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإشارة إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه، جامعا بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهي عنه، مع إشارة أنيقة، ورموز دقيقة، وأسرار جزيلة، وحكم جليلة[1].

---

(١) ينظر روح المعاني (١/ ٣٣).

ثانيا: عناية الألوسي بإبراز وجه إعجاز القرآن في موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى أثناء تفسيره.

ظهرت عناية الألوسي بإبراز هذا الوجه من وجوه الإعجاز في غير موضع من تفسيره، لا سيما عند ما أشار إليه فيما سبق من توحيد الله تعالى وتنزيهه، والدعاء إلى طاعته. . . إلخ.

كما ذكر الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧] في معنى الأمر بالتقوى في آخر الآية الكريمة حيث قال: "أي: أخلصوا لي التقوى"، ثم قال في تعليل الأمر بذلك: "فإن مقتضى العقل الخالص عن الشوائب ذلك"، ثم قال: "وليس فيه -على هذا- شائبة تكرار مع سابقه؛ لأنه حث على الإخلاص بعد الحث على التقوى"(١).

ثم عاد فقال عند التفسير الإشاري للتذييل الكريم: "فإن قضية العقل الخالص عن شَوْبِ الوهم وقشر المادة اتقاءُ الله تعالى"(٢).

وهذا يعني أن الأمر بتقوى الله تعالى مما يتوافق مع قضية العقل السليم المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انسداد.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ

---

(١) روح المعاني (١/ ٤٨٢)، وهو يعني بسابقه قوله تعالى في الحث على التقوى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾.

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٨٨).

ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧] – قال في دفع توهم التكرار بين قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وقد ذكر عدة أقوال، منها "وقيل: في الإخراج عن التكرار أن الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إلى ضلالهم عما جاء به الشرع"(١).

وهذا يعني أن الكفر فيه خروج عن مقتضى العقل السليم المستقيم؛ لذا دعا الإسلام إلى الإيمان بالله تعالى وحده.

وجعل نداء الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات خروجا عن مقتضى العقل، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤] في معناها: "والمراد أنهم لا يجرون على مقتضى العقل من مراعاة الأدب، لا سيما مع أجل خلق الله تعالى، وأعظمهم عنده سبحانه صلّى الله عليه وسلّم"(٢).

وجعل الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له من الموافقات لقضية العقل، كما قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠] في معنى قوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ – قال: "﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أي: بأن لا تعبدوا أحدا

(١) روح المعاني (٣/ ٣٧٥).
(٢) المرجع السابق (١٣/ ٢٩٣).

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حسبما يقتضي به قضية العقل أيضا"[١].

ثم قال بعد ذلك في معنى تذييل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ "﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين العقلية والنقلية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم؛ لجهلهم تلك البراهين، أو لا يعلمون شيئا أصلا، فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم معرضين عما يقتضيه العقل، ويسوق إليه سائق النقل"[٢].

وقد أكد الألوسي في غير موضع من تفسيره على دقة معاني القرآن، كما فعل عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١] حيث قال في معنى قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾: "والمراد أنه من الكتب السماوية، والتنوين للتفخيم، أي: قرآنا جليل الشأن ﴿عَجَبًا﴾ بديعا مباينا لكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى، وهو مصدر وصف به للمبالغة"[٣].

وذكر الألوسي في التفرقة بين إفراد الدار وجمعها في قصة ثمود في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧] أن المراد من الدار -في حالة

---

(١) روح المعاني (٦/ ٤٣٥).

(٢) المرجع السابق (٦/ ٤٣٥).

(٣) المرجع السابق (١٥/ ٩٤).

الإفراد-: البلد، كما في قولك: دار الحرب، ودار الإسلام، والمراد بالديار -في حالة الجمع-: منزل كل واحد الخاص به[1]، ثم ذكر عن النيسابوري: "أنه حيث ذُكِرت الرجفةُ وُحِّدت الدارُ، وحيث ذُكِرت الصيحةُ جُمِعت؛ لأن الصيحة كانت من السماء. . . فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فقرن كل منهما بما هو أليق به، فتدبر"[2].

وهو بهذا يشير بوضوح إلى استعمال القرآن كل لفظة في مكانها اللائق بها، بحيث لو تبدلت الأماكن لاختل المعنى بناء على اختلال اللفظ.

وتكلم الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء:١] عن سر الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وذكر أن التعبير بالغيبة أولا يدل على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالم الشهادة -أي: عالم الدنيا الذي يعيش فيه- إلى عالم الغيب -أي: عالم الآخرة- وهو بالغيبة أنسب، وأن الالتفات من الغيبة إلى التكلم لتعظيم البركات والآيات؛ لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عظم ما أضيف إليه، وصدر عنه،

---

(١) روح المعاني (٤/ ٤٠٣) بتصرف.

(٢) المرجع السابق (٤/ ٤٠٣) بتصرف. وينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/ ٢٧٥)، وهذا كلام برهان الدين الكرماني في أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان (ص: ١٢٣) رقم (١٣٧).

كما قيل: إنما يفعل العظيمُ العظيمَ، والذي يناسب هذا التعظيم التعبير بضمير العظمة (نا)، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ على معنى بعد الاتصال وعز الحضور، فيناسب التكلم معه، وأما الغيبة فلكونه صلّى الله عليه وسلّم إذ ذاك ليس من عالم الشهادة، ولذا قيل: إن فيه إعادة إلى مقام السر والغيبوبة من هذا العالم، والغيبة بذلك أليق[1].

وبهذه الأمثلة يتضح لنا اهتمام الألوسي بإبراز هذا الوجه من وجوه الإعجاز عنده كلما مر بآية من الآيات التي أشار إليها فيما سبق.

ثالثا: من سبق الألوسي إلى القول بهذا الوجه المعجز.

سبق الخطابي إلى هذا الكلام في تقرير رأي الأكثرين من أهل النظر في أن وجه كون القرآن معجزا هو موافقته لمقتضى، وقد سبق نقل كلامه في ذلك، غير أنه لم يجعله وجها مستقلا، كما فعل الألوسي.

رابعا: من أنكر هذا الوجه من وجوه الإعجاز.

أنكر الآمدي هذا الوجه من وجوه الإعجاز -فيما أنكره من وجوه- وحكم عليه بالبطلان؛ لأنه غير خارق للعادة؛ بل هو معتاد في أكثر كلام البلغاء، ثم ينتقض بكلام الرسول الذي ليس بمعجز، فإنه يدل على دقيق المعاني، وكذلك كلام التوراة والإنجيل، وليس بمعجز عندكم"[2].

ثم قال الآمدي: "وما ذكروه من الدلالة على أن وجه الاعجاز من القرآن ليس هو سلامة القرآن عن التناقض والاختلاف، ولا موافقته لقضية

---

(١) روح المعاني (٨/ ١٤) بتصرف.

(٢) أبكار الأفكار (٤/ ١٠٢).

العقل ودقيق المعاني، ولا قدمه، ولا دلالته على الكلام، ولا الصرفة، فهو بحق ونحن مساعدون عليه"[1].

ولما ذكر الألوسي في بيان هذا الوجه سبب كونه معجزا عنده -كما سبق- أحال على أن القارئ سيقف في ثنايا تفسيره على الكثير منها بحيث لا يبقى في شك من رد من يقول بأن ذلك معتاد في أكثر كلام البلغاء، وأنه ينتقض بالتوراة والإنجيل، وبكلام الرسول الغير المعجز، فأين الثريا من يد المتناول؟! [2].

فكأنه يرد بذلك على الآمدي، والله أعلم.

---

(١)روح المعاني (٤/ ١٢٩).

(٢)المرجع السابق (١/ ٣٣).

المبحث الثالث
موقف الألوسي من آيات التحدي

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غاية الفصاحة والبلاغة، آخذا بمجامع القلوب، جاذبا للأسماع، ملفتا للأنظار، وقد عرف الناس أن هذا الكلام لا يستطاع لبشر، ولا يمكن لجن، وأنه ليس إلا وحيا من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم تأييدا لدعواه، وهداية للناس جميعا من الضلال إلى النور، ومع هذا فقد وُجدت طائفة من الناس عاندوا وجحدوا وأنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله تعالى، وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها محمد من كتب الأقدمين، وقالوا مرة: شعر، وأخرى: سحر. . . إلخ ما رموا به القرآن الكريم، ولما كان من لازم نفي نسبته الإلهية عنه أنه جهد بشري يمكن معارضته والإتيان بمثله أنزل الله تعالى بعض الآيات في أزمنة متباعدة منها مكي، ومنها مدني، تحداهم بها وطلب منهم فيها أن يأتوا بمثل هذا الكلام أو بعضه، وقد عرفت هذه الآيات بآيات التحدي، وقد اختلف العلماء فيها وفي ترتيبها، وليس ثمة دليل يدل على واحد منها سوى الاجتهاد وإعمال الفكر، وسأقتصر على ذكر ما اشتهر منها، وهي:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فجمهور العلماء على إنها مرتبة حسبما ذكر، وأن الله تعالى تحداهم بمثل القرآن كله، فلما عجزوا خفف التحدي إلى عشر سور مثله مفتريات، فلما عجزوا أيضا خففه إلى سورة مثله، ثم كرر هذا التحدي على سبيل التأكيد إلى سورة من مثله، وقد أكد على عجزهم في سورة البقرة وعدم قدرتهم على المعارضة بالجملة الاعتراضية ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾، فلما تأكد عجزهم سجله عليهم وأثبت إعجاز القرآن بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومنهم قال: إن آية سورة الإسراء نزلت قبل آيات التحدي على سبيل الإخبار من الله تعالى بحقيقة أن القرآن كلام الله تعالى وأنه لا يمكن معارضته ولا الإتيان بمثله، ولو اجتمع الإنس والجن لذلك، وذلك لأن ترتيبها في النزول قبل سور يونس وهود والطور، فلما أنكر الكفار ذلك تحداهم عمليا وواقعيا بآيات التحدي.

ومن العلماء من قدم آية سورة يونس على آية سورة هود؛ وذلك لتقدم نزول سورة يونس على نزول سورة هود، فيجعل التحدي بسورة قبل التحدي بعشر سور.

ومنهم من جعل آية سورة الطور آخر الآيات المكية في التحدي، أي: بعد آيات سور الإسراء ويونس وهود، وقبل آية سورة البقرة، على معنى أنهم لما عجزوا عن العشر، ثم عن السورة، تحداهم بدونها بحديث مثله.

وقد اتفقوا على كون آية سورة البقرة آخر آيات التحدي؛ لأنها الآية المدنية الوحيدة.

ومن العلماء من جعل من آيات التحدي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، وجعلها أول مراحل التحدي... إلخ ما ذكروه في ذلك(١).

وأما الألوسي فقد أشار إلى اختلاف العلماء في ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣] إذ قال: "والكثير على أن هذا التحدي وقع أولا، فلما عجزوا تحداهم ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ كما نطقت به سورة البقرة، ويونس، وهو وإن تأخر تلاوة متقدم نزولا، وأنه لا يجوز العكس؛ إذ لا معنى للتحدي بعشر لمن عجز عن

(١) ينظر التفسير الكبير للرازي (١٧/ ٣٢٥)، والطراز للعلوي (٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، والبرهان للزركشي (٢/ ٩١، ١١٠، ١١١)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٤، ٥)، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١١٨)، ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني (٢/ ٣٣٣)، المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة (ص: ٨- ١٠)، وإعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف (ص: ٥٤- ٥٧).

التحدي بواحدة، وأنه ليس المراد تعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مماثلات لعشر معينة من القرآن".

ثم ذكر أنه "روي عن ابن عباس أن المراد ذلك، وجعل العشر ما تقدم من السور إلى هنا"[1]، وذكر أيضا أن أبا حيان اعترضه "بأن أكثر ما ذكر مدني، وهذه السورة حسبما علمت مكية، فكيف تصح الحوالة بمكة على ما لم ينزل بعد؟! ثم قال: ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما"[2].

ثم ذكر أن ابن عطية ذهب "إلى أن هذا التحدي إنما وقع بعد التحدي بسورة"[3]، وذكر أيضا أنه "روي هذا عن المبرد، وأنكر تقدم نزول هذه

---

(١) أورد هذه الرواية فخر الدين الرازي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم قال متعقبا لها: "وهذا فيه إشكال؛ لأن هذه السورة مكية، وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية، فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سورٍ التي ما نزلت عند هذا الكلام، فالأولى أن يقال: التحدي وقع بمطلق السور التي يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه". [التفسير الكبير (١٧/ ٣٢٤، ٣٢٥)].

(٢) ينظر البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ١٣١)].

(٣) ذكر ابن عطية أن التحدي بآية هود المشتملة على عشر سور مفتريات وقع بعد التحدي بسورة من مثله في البقرة، وأن آية هود قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر المطلوب؛ وهو أن يأتوا بعشر أمثال القدر الواحد من القرآن في نظمه فقط، وهذه غاية التوسعة؛ لتقوم عليهم الحجة، وهذا بخلاف آية البقرة فهي دون تقييد، وهي تعني المماثلة التامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده...
ثم رد ابن عطية على من قال: آية هود مقدمة في النزول ووقع التحدي بها قبل آية البقرة؛ إذ لا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرا – بأن قائل ذلك لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة. [ينظر المحرر الوجيز (٣/ ١٥٥)].

السورة على نزول تينك السورتين وقال: بل نزلت سورة يونس أولا، ثم نزلت سورة هود"[١].

ثم ذكر ما يؤيده من الآثار مما رواه ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما"[٢].

ثم قال في توجيهه: "ووجه ذلك بأن ما وقع أولا هو التحدي بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الأخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها، فلما عجزوا عن ذلك أمرهم بأن يأتوا بعشر سور مثله في النظم وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه، وضعفه في الكشف، وقال: إنه لا يطرد في كل سورة من سور القرآن، وهب أن السورة متقدمة النزول إلا أنها لما نزلت على التدريج جاز أن تتأخر تلك الآية عن هذه، ولا ينافي تقدم السورة على السورة، انتهى"[٣].

---

(١) حكاه البغوي عنه قائلا: "وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولا، وقال معنى قوله في سورة يونس:قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [سورة يونس:٣٨]. أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم على الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة" [معالم التنزيل (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)].

(٢) ورد ذلك في أثر طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فيه ترتيب نزول سور القرآن الكريم المكية والمدنية، وفيه نزول سورة الإسراء، ثم سورة يونس، ثم سورة هود متتابعة، ثم نزلت بعد ذلك بعدة سور سورة الطور. [ينظر فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة لابن الضريس (ص: ٣٣، ٣٤) رقم (١٧)].

(٣) هو كتاب كشف المشكلات عن تفسير الكشاف لسراج الدين أبي حفص عمر

ثم ذكر الألوسي تعقب الشهاب الخفاجي لصاحب الكشف ودفاعه عن رأي المبرد "بأن قوله: لا يطرد مما لا وجه له؛ لأن مراد المبرد اشتماله على شيء من الأنواع السبعة[1]، ولا يخلو شيء من القرآن عنها، وادعاء تأخر نزول تلك الآية خلاف الظاهر، ومثله لا يقال بالرأي".

ثم ذكر الألوسي أن الشهاب "ادعى أن الحق ما قاله المبرد من أنه عليه الصلاة والسلام تحداهم أولا بسورة مثله في النظم والمعنى، ثم تنزل فتحداهم بعشر سور مثله في النظم من غير حجر في المعنى، ويشهد له توصيفها بمفتريات"[2].

ثم ذكر الألوسي ما أيد به بعضُهم كلامَ المبرد مشيرا إلى كلام ابن عطية السابق "بأن التكليف في آية البقرة إنما كان بسبب الريب، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وهو في هذه الآية

بن عبد الرحمن الفارسي القزويني المتوفى سنة (٧٤٥هـ). [ينظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (٢/ ١٤٧٥)].

(١) هكذا في الطبعة المعتمدة من تفسير الألوسي: (الأنواع السبعة)، وفي طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت لتفسير الألوسي (١١/ ٣٨٢): (الأنواع التسعة) والظاهر أنها الأصح، وهذه الأنواع التسعة التي اشتمل عليها القرآن قد أشار إليها الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢] وذكر أنه قد نظمها بعضهم بقوله:

حلال حرام محكم متشابه ... بشير نذير قصة عظة مثل

[روح المعاني (٤/ ٣٦٦)].

(٢) ينظر حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي (٥/ ٧٩).

ليس إلا بسبب قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا".

ثم تعقبه الألوسي بقوله: "وفيه أن الأمر في سورة يونس كالأمر هنا مسبوق بحكاية زعمهم الافتراء -قاتلهم الله تعالى-مع أنهم لم يكلفوا إلا بنحو ما كلفوا به في آية البقرة، على أن في قوله: ولا يزيل الريب. . . إلخ، منعا ظاهرا"[1].

والظاهر من كلام الألوسي أنه ذكر قولين ولم يرجح بينهما، وذكر عقب كل قول ما تُعُقِّب به، مما يرجح أنه لم يختر منهما واحدا، وأنه لم يذكر من آيات التحدي إلا آيات سور يونس وهود والبقرة، ولم يذكر آية سورة الطور.

أما القول الأول الذي ذكره وقد عزاه للكثير من العلماء، وهو أن التحدي وقع أولا بآية سورة هود المشتملة على التحدي بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات، فلما عجزوا خفف عنهم التحدي بسورة واحدة كما في آيتي سورتي يونس والبقرة، وقد أشار إلى أن سورة هود وإن كانت متأخرة في التلاوة، يعني في الترتيب إلا أنها متقدمة في النزول، وأنه لا يجوز أن يقال بعكس ذلك لما يترتب عليه من عدم جدوى تحدي من عجز عن الإتيان بسورة واحدة أن يتحدى بالإتيان بعشر سور، ولا يقال لدفع هذا: ليس المراد تعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مماثلات لعشر معينة من القرآن، ثم ذكر ما يؤيده مما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن المراد بالسور العشر: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود، وذكر اعتراض أبي حيان عليه

---

(١) روح المعاني (٦/ ٢٢٢، ٢٢٣).

بأن أكثر هذه السور مدني، وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة، فكيف يحال فيما نزل بمكة على ما لم ينزل بعد، ونزل بعد ذلك في المدنية، ثم أورد قول ابن حبان بترجيه عدم صحة نسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ذكرتُ استشكال الفخر الرازي له أيضا، وأن الأولى أن التحدي وقع بمطلق السور لا هذه السور بعينها.

وأما القول الثاني الذي ذكره فهو قول ابن عطية، ومن قبله المبرد اللذين ذهبا إلى عكس القول السابق، وهو أن التحدي وقع أولا بسورة واحدة، وهو ما في سورة يونس، ثم وقع التحدي بعد ذلك بعشر سور لما عجزوا، وهو ما في سورة هود، بناء على أن سورة يونس نزلت قبل سورة هود.

وقد نقلتُ عن المبرد أنه وجه هذا بأن معنى ما في سورة يونس أن يأتوا بسورة مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد وغيره، فلما عجزوا عنه تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله في البلاغة فقط، من غير خبر ولا حكم ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة.

وفرق بينهما ابن عطية بأن ما في سورة هود توسعة عليهم في القَدْرِ غاية التوسعة؛ لتقوم عليهم الحجة غاية القيام؛ لأنه قيدها بالافتراء، كأنه قيل لهم: عارضوا القَدْرَ منه بعشر أمثاله في التقدير، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، وليس معناه أن يعارضوا عشر سور منه بعشر، وأما ما في سورة يونس فهو مطلق غير مقيد، فالمماثلة تامة في كل شيء، في غيوب القرآن ومعناه ونظمه ووعده ووعيده وغير ذلك، فلما ثبت عجزهم عنها وسع لهم في الإتيان عشر في مجرد النظم. . . إلخ.

ثم أشار الألوسي إلى ما يؤيده، وهو ما رواه ابن الضريس في فضائل

القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما في ترتيب نزول سور القرآن، وفيه أن نزول سورة هود بعد سورة يونس مباشرة، ثم ذكر ما وُجِّه به هذا القول من كلام المبرد وابن عطية، ثم نقل تضعيف صاحب الكشف له بأن هذا لا يطرد في كل سورة من سور القرآن، واحتمال تأخر آية سورة يونس في النزول وإن تقدمت السورة نفسها على سورة هود في النزول مراعاة للتدريج في التحدي، ثم ذكر تعقب الشهاب الخفاجي لسراج الدين القزويني صاحب الكشف في رده على المبرد، وما كان من دفاعه عن المبرد وتوجيهه لكلامه وما كان من ادعائه من أن الحق ما قاله، ثم ختم بكلام ابن عطية في تأييد دعواه، ثم تعقب ابن عطية بنفسه فيما ذكره.

ويبدو لي من آخر كلامه أنه لم يكمل كلام ابن عطية؛ لأن ابن عطية فرق بعد ذلك بين التكليفين في سورتي يونس وهود، بأن ما في سورة يونس في كمال المماثلة، وما في سورة هود في المماثلة في النظم فقط، وذلك ردا على من قال: سورة هود مقدمة في النزول على سورة يونس، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرا، والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبة على قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ وكذلك آية البقرة وإنما ريبهم بأن القرآن مفترى.

ويبدو لي أيضا -والله أعلم- من كلام الألوسي مؤخرا أنه يميل إلى رأي الكثير من العلماء القائلين بالرأي الأول؛ لتعقبه بنفسه كلام ابن عطية الممثِّل للرأي الثاني، وعدم تعقبه للرأي الأول، وبالله تعالى التوفيق.

المبحث الرابع
الأقوال المستبعدة في إعجاز القرآن عند الألوسي

صرح الألوسي برد وجهين من الوجوه الثمانية التي ذكرها لإعجاز القرآن، وجعلهما أبعد الأقوال، وإن جاء رده عليهما مقتضبا، اكتفى فيه باستبعادهما دون إطالة النفس فيه كعادته في كثير من مسائله وردوده، فقد اقتصر فيه على قوله: "وأبعد الأقوال عندي كونه بالصرفة المحضة، حتى أن قول المرتضى فيها غير مرتضى، كما لا يخفى على من أنصفه ذهنه، واتسع عقله، وأبعد من ذلك كونه بالقدم كما هو قريب ممن هو حديث عهد بما تقدم"[1].

وعذر الألوسي في ذلك هو وضوح أمر بطلانهما عنده، كما هي عادته في الإشارة -من دون العبارة-إلى ما هو في غاية الوضوح في الضعف والبطلان دون التصريح بذلك، معتمدا في ذلك على فطنة قراء تفسيره.

أولا: استبعاد الألوسي للقول بالصرفة

وقد استبعد الألوسي في القول الأول القول بالصرفة وجها من وجوه إعجاز القرآن.

والصرفة في اللغة: بفتح الصاد وسكون الراء، اسم مرة من الصرف، وهو مصدر (صَرَفَ)، وصيغت على وزن اسم المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص، فصارت كالعلم بالغلبة[2].

وهذه المادة تدور حول الرد والمنع. ومنه قولهم: صرفت القوم

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١/ ١٠٣).

صرفا، وانصرفوا: إذا رجعتهم فرجعوا[١].

والصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره[٢].

الصرفة في الاصطلاح

قد أشار الألوسي في المراد بالصرفة إلى معنيين للقائلين بها، الأول: الصرفة المحضة، والثاني: قول المرتضى الذي وصفه بأنه غير مرتضى.

وكان قد ذكر قبل ذلك في الوجه السابع من وجوه الإعجاز القول بالصرفة، وعزاه للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني من أهل السنة الأشاعرة، وأبي إسحاق النظام من المعتزلة، وذكر أن معناها: صرف دواعي بلغاء العرب عن معارضة القرآن، وذكر معناها عند المرتضى الشيعي بأنها سلب العلوم التي لابد منها في المعارضة.

أما المعنى الأول: وهو قول أبي إسحاق إبراهيم بن سيَّار النظَّام المعتزلي فقد سبق نقل كلام أبي القاسم البلخي المعتزلي وأبي الحسن الأشعري وأبي الحسين بن الخياط المعتزلي عنه أنه كان يقول بالصرفة، وأن العرب كانوا يقدرون على معارضة القرآن لولا أن الله تعالى منعهم من ذلك.

وذكرها الشهرستاني في المسائل التي انفرد بها النظام عن أصحابه المعتزلة[٣].

وعلى أية حال فالصرفة من الأقوال المشهورة عند المعتزلة وجها من وجوه إعجاز القرآن، فقد قال بها الجاحظ مع النظم المعجز، كما سبق،

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٤٢).

(٢) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٤٨٢).

(٣) الملل والنحل (١/ ٥٦، ٥٧).

وقال بها أبو الحسن الرماني ضمن سبعة وجوه لإعجاز القرآن، كما سبق أيضا.

وقد نسب هذا القول أيضا إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وواضح من نسبة الألوسي هذا القول إليه أن من أهل السنة من يقول بالصرفة وجها لإعجاز القرآن، وهو صحيح، وقد نسبه إليه أيضا عضد الدين الإيجي، وقرنه بالنظَّام أيضا، وذكر معناها عندهما: "صَرَفهم الله مع قدرتهم"(١).

"وذلك بأن صرف دواعيهم إليها، مع كونهم مجبولين عليها، خصوصا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز، والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة فيكون معجزا"(٢).

وكان من أهل السنة الذين قالوا بالصرفة الراغب الأصفهاني، فقد ذكر في مقدمة تفسيره: أن الإعجاز في القرآن على وجهين: أحدهما: فصاحته، والثاني: صرف الناس عن معارضته.

ثم ذكر أن الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته ظاهر، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية، واتفاقات إلاهية، بدلالة أن الواحد فالواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه في مزاولتها، فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانشراح صدر، فلما رُؤِيَ أهلُ البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا

---

(١) المواقف في علم الكلام (٣/ ٣٧٨).

(٢) شرح المواقف للشريف الجرجاني (٨/ ٢٦٩، ٢٧٠).

الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يَخْفَ على ذي لُبٍّ أن صارفا إلهيًا يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مُخيرةً في الظاهر أن يعارضوه، ومُجْبَرةً في الباطن عن ذلك[1].

هذا عن المعنى الأول للصرفة.

وأما المعنى الثاني: وهو الذي عزاه للمرتضى الشيعي، وهو سلب العلوم التي لابد منها في المعارضة، فهو من الشهرة بمكان عنه، فقد ذكر مرة في جهة دلالة القرآن على النبوة اختلاف الناس فيها قول قوم بالصرفة عن معارضة القرآن، ولولا هذا الصرف لعارضوه، ثم قال: "وإلى هذا الوجه أذهب، وله نصرت في كتابي المعروف بالموضح عن جهة إعجاز القرآن"[2].

وقال في كتابه الذي أشار إليه: "والصرفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كلَّ من رام المعارضة وفكر في تكلفها في الحال العلومَ التي يتأتى معها مثلُ الفصاحة والبلاغة وطريقته في النظم"[3].

وعلى هذا فالمراد بالعلوم المسلوبة: العلوم الحاصلة لهم التي يتأتى بها البيان والفصاحة والبلاغة، بحيث يستطيعون معارضة القرآن بها، فلم يبق لهم قدرة عليها.

وقد وافق المرتضى على ذلك شيعي آخر، وهو ابن سنان الخفاجي، حيث قال بعد كلام طويل له في تقرير ذلك: "وإذا عدنا إلى التحقيق

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٦) بتصرف.

(٢) الذخيرة في علم الكلام (ص: ٣٧٨).

(٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) (ص ٣٥، ٣٦).

وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك"[1].

بل كان قد جاوز حده وساء الأدب قبل ذلك لما قال: "ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدني معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب هي ما يضاهى القرآن في تأليفه"[2].

وهناك معنى ثالث للصرفة: لم يذكره الألوسي، وهو "أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القَسْر عن المعارضة، مع كونهم قادرين، وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة"[3].

وهذا يعني أنه على المعاني الثلاثة للصرفة فقد كان العرب قادرين على أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك.

وهذا خلاف ما صرح به بعض العلماء المحدثين في التفرقة بين المعنيين السابقين بأن الأول الذي نسب للنظام وغيره فيه أن العرب كانوا قادرين على المعارضة لولا صرفهم عنها، بخلاف الثاني الذي نسب للمرتضى وغيره فيه أنهم لم يكونوا قادرين على المعارضة مع صرفهم عنها، ولو توجهوا إليها لما استطاعوها[4].

وفي هذا نظر؛ حيث صرح من حكى عن النظام قوله هذا بأن العرب كان في مقدورهم الإتيان بمثل القرآن لولا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك،

---

(١) سر الفصاحة (ص: ١٠٠).

(٢) سر الفصاحة (ص: ٩٩).

(٣) الطراز للعلوي (٣/ ٢١٨).

(٤) مباحث في إعجاز القرآن، د مصطفى مسلم (ص: ٦٥).

كما سبق ذكره.

كما أن الصرفة لا يتصور معناها من غير قدرة العرب على معارضة القرآن، وإلا فما الحكمة من صرفهم عن شيء هم عنه عاجزون؟! والله أعلم.

والقول بالصرفة قول ابن حزم الظاهري في إعجاز القرآن، وله فيها جدال، ختمه بقوله: "فكان هذا كلُّه إذ قاله غيرُ الله عز وجل غيرَ معجز بلا خلاف، إذ لم يقل أحد من أهل الإسلام أن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له أصاره معجزا، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره، والحمد لله"(١).

وكان هذا موضع إعجاب الشيخ الرافعي إذ قال: "ولم نر أحدا فسر هذه الكلمة (الصرفة) كابن حزم الظاهري. . . نقول: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من أن يكون كافيا أيضا؛ لأنه لما قاله ابن حزم وجعله رأيا له أصاره كافيا لا يحتاج إلى غيره! وهل يراد من إثبات الإعجاز للقرآن إلا إثبات أنه كلام الله تعالى"(٢).

الفرق بين المعاني الثلاثة للصرفة

والفرق بين المعاني الثلاثة للصرفة من حيث المعنى: أن القوم في التفسير الأول كانوا قد سلبوا الدواعي إلى المعارضة، مع توفرها في حقهم؛ للتحدي الحاصل لهم، والتفسير الثالث عكسه؛ فإن القوم يملكون دواعي المعارضة، ولكن الله منعهم وسلب قواهم عن ذلك، وأما التفسير

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص: ١٠٢).

الثاني ففيه سلب العلوم اللازمة للمعارضة، سواء توفرت الدواعي أم لا[1].

سبب القول بالصرفة

سبب زعم ذلك -فيما يبدو- عند القائلين بالصرفة "ما يرون من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب، الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة لا يقصر عن معارضته، خلا ما عرض من منع الله إياهم بما ذكرناه من الموانع"[2].

وهذا لا يمكن قبوله على الإطلاق؛ لأنه وإن اشتمل بعض كلام العرب على ما ذُكر إلا أنه يبقى التفاوت الكبير بين كلام الله تعالى وبين كلامهم، ومن ذلك أن كلام الله تعالى لا يمكن فيه وضع كلمة مكان أخرى، فكل كلمة في موضعها أحسن شيء في موضعه، وهكذا في الأساليب والنظم وغيرها.

أدلة القائلين بالصرفة

لم يذكر القائلون بالصرفة أدلة نقلية عليها، وإنما ذكروا دليلا عقليا في معرض ردهم على القائلين بإعجاز القرآن بسبب نظمه؛ لأنه كان في مقدور العرب حسب زعمهم.

وقد ذكر هذا الدليل أحد متقدمي المعتزلة ورؤسائهم، وهو أبو القاسم البلخي، حيث قال: "واحتج من ذهب إلى أن نظم القرآن ليس بمعجز عنه، إلا أن الله تعالى أعجز عنه، وأنه لو لم يعجز عنه لكان مقدورا

---

(١) إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف (ص: ٩٥) الحاشية (١) بتصرف.

(٢) الطراز للعلوي (٣/ ٢١٨).

عليه، بأنه حروف جعل بعضها إلى جنب بعض، فإذا قدر الإنسان على أن يقول: (الحمد) فهو قادر على أن يقول: (الحمد لله) ثم كذلك كل حرف"[1].

وقد أطال المرتضى في تقرير هذا الكلام، ومفاد ما ذكره: أن الله تعالى لو لم يُعْجِز العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأتوا به؛ لأنه مؤلف من الحروف التي يتكلمون بها، ومن قدر على ضم بعض الحروف إلى بعض، وتقديم بعض الكلام على بعض، وتأخير بعضه على بعض قدر على الكل، ومن قدر على بعض الكلام قدر على الكل، لولا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك[2].

الرد على القائلين بالصرفة

رد على المعتزلة القائلين بالصرفة وغيرهم جماعة من العلماء، بأدلة متنوعة، منها ما يلي:

أولا: ردود نقلية.

الملاحظ أن أكثر من رد عليهم اعتمد في رده على قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكان من أقدم من ذكر الآية الكريمة في هذا الموطن ابن الراوندي في

---

(١) الذخيرة في علم الكلام للمرتضى (ص: ٤٠١)، وقد نقله عن أبي القاسم البلخي من كتابه الموسوم بعيون المسائل والجوابات مع كتابه المقالات، وهو مطبوع، ولم أستطع الوقوف عليه.

(٢) ينظر الموضح في إعجاز القرآن (الصرفة) (ص: ٤٦، ١٠٧، ١٠٨)، والذخيرة في علم الكلام له أيضا (ص: ٤٠٠ - ٤٠٢).

الرد على النظَّام، لما زعم أن نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن الخلق يقدرون عليه، كما سبق نقله عن أبي الحسين الخياط.

ومن هؤلاء العلماء الخطابي من حيث قد أشار القرآن في تحديه وإعجازه إلى أَمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأَهب والاحتشاد، والمعنى الذي ذكروه في الصرفة غير هذا، فهذا دليل على أن المراد بالمعجز غيرها(١).

وأضاف القاضي عبد الجبار المعتزلي حيثية أخرى، وهي أن القرآن قد نبه "على أن له من الرتبة في الفصاحة ما لا تدركه العباد انفردوا أو اجتمعوا، ولو كانوا يقدرون عليه وإنما صُرفوا عنه، لم يكن لهذ القول معنى"(٢).

ومن جهة أخرى ذكر الزركشي أن ما في الآية الكريمة "يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل

ثانيا: ردود عقلية.

وبما أن القائلين بالصرفة من المعتزلة وغيرهم يعتمدون في غالب ذلك على العقل فقد رد عليهم العلماء به، وفيما يلي طائفة من ذلك.

١- أنه لا يجوز أن يكون العرب ممنوعين من الكلام؛ لأن المنع والعجز لا يختص كلاما دون كلام، فكيف منعوا من معارضة القرآن، في

---

(١) ينظر بيان إعجاز القرآن (ص: ٢٣).

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار (ص: ٢٣٢، ٢٣٣).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٤).

حين أنهم لم يمنعوا من الكلام الفصيح سواه، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم لما أمكنهم الكلام المعتاد، والمعلوم من حالهم خلاف ذلك(١).

٢- أن هذا الوجه لو صح لما كان القرآن معجزا، ولكان المعجز هو المنع من فعل مثله، ويلزم على هذا ألا يكون للقرآن مزية ألبتة، وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] فلا يقال في الجماعة إذ امتنع عليها الشيء عن بعضها يكون ظهيرا لبعض؛ لأن المعاونة والمظاهرة إنما تمكن من القدرة، ولا تصح مع العجز والمنع، وهذا يعني أنهم لو كانوا قادرين متمكنين لما أمكنهم أن يأتوا بمثله، ولا يكون ذلك إلا لمزية القرآن(٢).

٣- "أنه لا يقال عن الشيء يُمنعه الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يَكْثُر مثله منه: إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله، ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه، وإنما يقال: إني أُعطِيت أن أَحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه، وأمنعكم إياه، وأن أُفحِمكم عن القول البليغ، وأُعدِمكم اللفظ الشريف، ومما شاكل هذا"(٣).

٤- "أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا غيره، وليس فيه صفة إعجاز؟! بل المعجز هو الله تعالى؛ حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله"(٤).

---

(١) ينظر المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار (١٦/ ٣٢٢).

(٢) ينظر المرجع السابق (١٦/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) دلائل الإعجاز (١/ ٦١٥).

(٤) الموضع نفسه من المرجع السابق.

٥- "يلزم من القول بالصرفة فساد آخر، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة؛ فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى، ولا معجزة له باقية سوى القرآن، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة"(١).

وأختم الردود بما ذكره الشيخ الرافعي بقوله: "وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤] وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذَبهم فيه، وجعل القول به ضربًا من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٥] فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد"(٢).

ثالثا: أدلة واقعية.

وتأكيدا على ما سبق أذكر بعض الأمثلة التي تثبت أن إعجاز القرآن ذاتي لأمر فيه هو، وليس لشيء خارج عنه.

فمن ذلك ما روي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ"(٣).

والظاهر أن انزعاجه عند سماع هذه الآيات كان بسبب حسن تلقيه

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٤).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٠٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، سورة الطور (٦/ ١٤٠) رقم (٤٨٥٤).

لها، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، وفهمها فهما دقيقا[١].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في قصة إسلامه لما قدم مكة هو وأخوه أنيس وأمهما، وهو حديث طويل، وفيه: "فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ، فَرَاثَ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ، يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"[٢].

وأُنَيس هذا لم يكن قد أسلم بعد، ومع هذا عرف أن ما للقرآن في ذاته -لا لشيء خارجي عنه-من الروعة والأخذ بمجامع القلوب ما لسي لغيره من كلام العرب.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ: إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لَمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ، أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ، قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ، وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ

---

(١) ينظر أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) للخطابي (٣/ ١٩١٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٤/ ١٩١٩، ١٩٢٠) رقم (٢٤٧٣).

مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١]"[1].

فكل هذه الأدلة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن إعجاز القرآن إنما هو لتأثيره بنفسه على القلوب والأسماع، وليس لصرف الله تعالى الناس عن معارضته والإتيان بمثله، والله أعلم.

ثانيا: استبعاد الألوسي للقول بالقدم.

والقول الآخر الذي استبعده الألوسي من وجوه إعجاز القرآن، وجعله أبعد من الصرفة هو كونه بالقدم.

وهذا القول يختلف في إبطاله على طريقة المعتزلة عنه على طريقة أهل السنة؛ لأن المعتزلة متفقون على أن كلام الله تعالى مركب من الحروف والأصوات، وأنه محدث مخلوق، واتفقوا أيضا على حمل كونه تعالى متكلما على معنى أنه خالق للكلام على وجه لا يعود إليه منه صفة حقيقية، كما لا يعود إليه من خلق الأجسام وغيرها صفة حقيقية[2].

وقد انبرى لإبطاله من تكلم عن إعجاز القرآن منهم، كما فعل

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٥٥٠، ٥٥١) رقم (٣٨٧٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر أبكار الأفكار للآمدي (١/ ٣٥٤).

القاضي عبد الجبار[١]، وكما فعل الشريف المرتضى الشيعي المتأثر بالمعتزلة[٢].

وقد أبطله الآمدي على مذهب أهل السنة الأشاعرة من حيث إنه: "إن أريد بالقرآن ما هو المسموع من الحروف والأصوات المنتظمة فليس ذلك قديما"[٣]؛ لأن كلام الله تعالى عندهم هو ما قام بذاته تعالى من كلام قديم أزلي نفساني أحدي الذات، ليس بحروف، ولا أصوات[٤].

"وإن أريد به المقروء فهو باطل أيضا"[٥]؛ لأن معنى كونه مقروءا بألسنتنا أنه مدلول للقراءة القائمة بألسنتنا، والقراءة مخلوقة قائمة بألسنتنا، ولا يلزم من حدوث القراءة وقيامها بنا أن يكون المقروء كذلك؛ فإن القراءة والمقروء بمنزلة الذكر والمذكور، ومن ذَكَر الله تعالى بلسانه فذكره حادث قائم به دون الله تعالى، وكما لا يلزم ذلك في الذكر والمذكور فكذلك في القراءة والمقروء، وعلى هذا التحقيق يكون الكلام في الحفظ والمحفوظ، والكتابة والمكتوب، ثم كيف يكون المكتوب حالا فيما فيه الكتابة؟ والله تعالى مكتوب في المصاحف وهو غير حال فيها، وقد قال الله تعالى في حق محمد صلى اللّه عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية. [الأعراف: ١٥٧] وَصَفَهُ بكونه مكتوبا في التوراة والإنجيل، وإن لم يكن عليه السلام حالا فيهما[٦].

---

(١) ينظر المغني في التوحيد والعدل (١٦/ ٣١٨ وما بعدها).

(٢) ينظر الموضح في إعجاز القرآن (الصرفة) (ص: ١٢٩ وما بعدها).

(٣) أبكار الأفكار (٤/ ١٠٢).

(٤) ينظر المرجع السابق (١/ ٣٥٣).

(٥) أبكار الأفكار (٤/ ١٠٢).

(٦) المرجع السابق (١/ ٣٦٤، ٣٦٥) بتصرف.

وذكروا في إبطالها أيضا: "إنه لو جاز أن يجعل كلام الله القديم معجزة لجاز أن تكون كل صفة من صفاته: كعلمه، وقدرته، وغير ذلك معجزا، وهو محال"، كما أن "القول بأن الإعجاز فيه دلالته على الكلام القديم باطل؛ فكتب الأنبياء المتقدمين الزّبور والصّحف والتّوراة، والإنجيل؛ فإنها دالة على كلام الله القديم، وليست معجزات"[1].

(١) أبكار الأفكار للآمدي (٤/ ١٠٢).

المبحث الخامس
القدر المعجز من القرآن عند الألوسي

ذهب الألوسي إلى أن القرآن معجز بجملته وأبعاضه، حتى أقصر سورة معجزة، وأن إعجازه بالوجوه الأربعة التي سبق الحديث عنها(١).

وهو بهذا موافق لمذهب جمهور العلماء في ذلك، وفي المسألة ثلاثة أقوال(٢):

الأول: مذهب الجمهور: وهو أن أقل ما يقع به الإعجاز هو السورة سواء أكانت قصيرة أم طويلة، وما كان بقدرها، فإذا كانت الآية الواحدة منه أو أكثر بقدر سورة منه -ولو أقصر سورة، وهي الكوثر- فهي معجزة، بحيث يتبين فيها تفاضل قوى البلاغة، ولم يقع الإعجاز عندهم بأقل من ذلك.

واحتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:٣٨] فقد تحداهم الله تعالى تحديا إلى السور كلها، ولم يخص؛ حيث جاءت (سورة) منكرة، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز.

---

(١) ينظر روح المعاني (١/ ٣٢).

(٢) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٢٥٤)، والفصل لابن حزم الظاهري (٣/ ١٢- ١٤)، والبرهان للزركشي (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، والإتقان للسيوطي (٤/ ٢٠، ٢١)، ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني (٢/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ودراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل (ص: ٣٦١، ٣٦٢)، وعلوم القرآن الكريم، د. نور الدين عتر (ص: ١٩٤)، ومباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم (ص: ٤٠، ٤١).

ثم إن مراحل تحدي العرب بالقرآن -على ما سبق ذكره- تدل على صحة هذا القول، فقد تحداهم بالقرآن كله مرة، وبعشر سور مثله مفتريات مرة أخرى، وبسورة مثله مرة ثالثة، وبحديث مثله مرة رابعة، وهكذا، وكانوا ينتقلون في كل مرحلة من هذه المراحل من عجز إلى عجز، بينما ينتقل القرآن من نصر إلى نصر.

الثاني: مذهب المعتزلة: وهو أن الإعجاز يقع بجميع القرآن لا ببعضه، وأن كل سورة برأسها معجزة.

واحتجوا له بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:٣٤] على إن المراد ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ القرآن كله.

ورد عليه بما ثبت في مراحل التحدي من التحدي بعشر آيات مرة، وبسورة واحدة مرة أخرى.

الثالث: أن الإعجاز يقع بكثير القرآن وقليله.

وقد عزاه ابن حزم لسائر أهل الإسلام، وقال: "وهذا هو الحق الذي لا يجوز خلافه"، وأطال النفس في تقريره وإثبات صحته، والرد على مذهب الجمهور.

واحتجوا له بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:٣٤] من حيث إن المراد بـ ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ جنس القرآن، وليس قدرا معينا منه، وهو يصدق على القليل والكثير، ولو كان أقل من سورة الكوثر التي أقصر سورة.

ورد عليه بأنه لا حجة لهم فيه، وأنها ليست تخالف مذهب الجمهور؛ لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، ويمكن أن

يكون المراد ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ القبيل دون التفصيل.

وكذلك يحمل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨] على القبيل؛ لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره.

وقد مال إليه من المعاصرين الدكتور محمد بكر إسماعيل الذي ذهب إلى أن الآية من القرآن معجزة بذاتها، وإن لم تبلغ في الطول سورة الكوثر، ودلل على ذلك بأنه لو عُرض على سمع الإنسان شيء من كلام الناس، وشيء من كلام الله، استطاع أن يميِّز بين الكلامين من غير كلفة، ولا إنعام نظر، وعلى هذا فالآية القرآنية مهما كانت قصيرة، فإن لها من الجلال والجمال ما للآية الكبيرة، فالقرآن معجز كله، وإعجازه في كل آية من آياته، يُعْرَف ذلك بالبصائر والضمائر(١).

وعلى أية حال فالذي تميل نفسي إليه هو رأي الجمهور؛ لقوة حجتهم، وكثرة الآخذين به من العلماء، غير أني أود أن أركز على قضية مهمة، وهي: أن ما ذكروه من كون الآية الواحدة أو أكثر مما هو بقدر أقصر سور منه معجز أنه لابد فيه من تفاضل قوى البلاغة، وهذا لا يشترط فيه قدر معين، إذ يمكن أن يتحقق ذلك في سورة، أو آية واحدة، أو أكثر، أو بعض آية، وأن ذلك لا يتحقق

---

(١) دراسات في علوم القرآن (ص: ٣٦٣) بتصرف. ومن هؤلاء أيضا الشيخ مناع بن خليل القطان، كما مباحث في علوم القرآن (ص: ٢٧٢)، و د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، كما في دراسات في علوم القرآن (ص: ٢٧٢).

في آية طويلة مقطوعة من سياقها، وعلى هذا فالضابط لذلك أن يعرف بهذا القدر مصدر القرآن الكريم، وأنه كلام الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢][1].

وبالله تعالى التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) ينظر مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم (ص: ٤٢).

الخاتمة

أسأل الله حسنها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه رحمة للعالمين، وأيده بالقرآن العظيم؛ ليكون دليل صدقه، وبرهان دعوته، وبعد.

فبعد هذه الرحلة الطيبة مع مفهوم إعجاز القرآن الكريم عند الأمام الألوسي رحمه الله تعالى أسجل هنا ما انتهيت إليه من نتائج وملاحظات.

١- بدا واضحا مدى اهتمام المسلمين على مدار تاريخهم الطويل بالقرآن الكريم من كل نواحيه، وفي القلب منها إعجازه، فلم يكتفوا بمجرد إثبات إعجازه، وإنما تجاوزا ذلك لمعرفة وجه ذلك الإعجاز؛ دفاعا عن ساحة القرآن أن ترمى بما لا يليق به.

٢- أن تعدد وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء كانت نتاج ثقافات مختلفة، ومشارب متنوعة، ولم تكن كلها على درجة واحدة من القوة أو الضعف، ولا يمكن وضعها كلها في سلة واحدة، والحكم عليها حكما واحدا، وإنما يحتاج كل قول إلى نظرة مستقلة.

٣- أن نظر أكثر المتقدمين إلى الإعجاز كان يعتمد على الابتكار لوجوه الإعجاز، إذ جُل وجوه الإعجاز ترجع إليهم، بينما كان نظر أكثر المتأخرين إليه يعتمد على الجمع والعرض والاختيار من أقوال المتقدمين، كما فعل الألوسي وغيره.

٤- أن الاختلاف في وجه إعجاز القرآن لا يقدح في حقيقة إعجازه وصحة التحدي به، إذ يحصل المطلوب -وهو إعجاز القرآن- بأي وجه وقع به، سواء أكان نظمه، أم بلاغته وفصاحته، أم إخباره بالغيب، أو غير ذلك.

٥- أن أغلب وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء لا مانع من قبولها، ويمكن ضم بعضها إلى بعض لتكوين رأي جامع في الإعجاز، كالذي فعله الألوسي وغيره.

٦- أن الإمام الألوسي في مفهوم الإعجاز عنده لم يكن بدعا من العلماء في ذلك، وإنما سبقه إلى القول بأغلب ما اختار من الوجوه كثير منهم.

٧- أن الإمام الألوسي لم يحسم الأمر بالنسبة لترتيب آيات التحدي في القرآن، غير أنه بظاهر قوله يميل إلى رأي الكثير من العلماء القائلين بوقوع التحدي بعشر سور أولا، فلما عجزوا خُفف عنهم التحدي إلى سورة.

٨- أن القول بالصرفة وإن كان أكثر القائلين به من المعتزلة إلا أن عدوى ذلك قد انتقلت إلى بعض علماء أهل السنة، كالأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، ومن الظاهرية ابن حزم.

٩- لم يختلف رأي الإمام الألوسي بالنسبة للقدر المعجز من القرآن عن رأي الجمهور بأنه السورة سواء أكانت طويلة أو قصيرة، أو ما كان بمقدارها شرط وقوع البيان بها.

وأحسب أن مسألة إعجاز القرآن بحاجة ماسة إلى مزيد من الدراسات الجادة التي من شأنها تعميق صلة المسلمين بكتابهم، وتقوية تعلقهم بمصدر عزهم، ومنشأ فخرهم.

والله تعالى أعلم وأعلى.

فهرس المراجع

- أبكار الأفكار في أصول الدين لسيف الدين الآمدي (المتوفى: ٦٣١ هـ) تحقيق: د. أحمد محمد المهدي، ط/ دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة، ط/ ٢ سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لبرهان الدين الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط/ دار الفضيلة.
- أصول السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ) ط/ دار المعرفة، بيروت.
- إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، د. محمد موسى الشريف، ط/ دار الأندلس الخضراء، جدة.
- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني (المتوفى: ٤٠٣هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/ دار المعارف- مصر، ط/ ٥ سنة ١٩٩٧م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٨ سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) لأبي سليمان الخطابي (المتوفى: ٣٨٨ هـ) تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، ط/ جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط/ ١ سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- أعلام العراق لمحمد بهجة الأثري، ط/ المطبعة السلفية ومكتبتها.

○ الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد لأبي الحسين الخياط.
○ الأنساب لأبي سعد السمعاني (المتوفى: ٥٦٢هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، ط/ مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط/ ١ سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.
○ الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط/ دار الجيل، بيروت، ط/ ٣ سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣.
○ البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) ط/ دار الكتبي، ط/ ١ سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
○ البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة (٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، ط/ دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ.
○ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار إحياء الكتب العربية، ط/ ١ سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
○ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تحقيق: محمد علي النجار، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
○ بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، ط/ دار المعارف بمصر، ط/ ٣ سنة ١٩٧٦م.

○ بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب لشمس الدين الأصفهاني (المتوفى: ٧٤٩هـ) تحقيق: محمد مظهر بقا، ط/ دار المدني، السعودية، ط/ ١ سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

○ البيان والتبيين للجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ط/ دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ١٤٢٣هـ.

○ تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي المتوفى (١٢٠٥هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.

○ التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي (المتوفى: ٤٦٠هـ) تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

○ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ط/ الدار التونسية، تونس، سنة ١٩٨٤هـ.

○ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر لجرجي زيدان (المتوفى: ١٩١٤م) ط/ مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.

○ التعريفات للشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) تحقيق: جماعة من العلماء، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

○ التفسير البسيط لأبي الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ط/ ١ سنة ١٤٣٠هـ.

○ تفسير الراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: د/ عادل بن علي الشِّدِي، ط/ دار الوطن، الرياض، ط/ ١ سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

○ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ ٢ سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

○ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ ٣ سنة ١٤٢٠هـ.

○ تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار (المتوفى: ٤١٥هـ) ط/ دار النهضة الحديثة، بيروت.

○ تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/ ١ سنة ٢٠٠١م.

○ التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) تحقيق: أوتو تريزل، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، ط/ ٢ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

○ جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق الشيخ: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

○ جمع الجوامع في أصول الفقه لتقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ) تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ٢ سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

○ حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) لشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ) ط/ دار صادر، بيروت.

○ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار (المتوفى: ١٣٣٥هـ) تحقيق: حفيدة محمد بهجة البيطار من أعضاء مجمع اللغة العربية، ط/ دار صادر، بيروت، ط/ ٢ سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

○ الحيوان للجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

○ دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٦هـ) ط/ دار المنار، ط/ ٢ سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

○ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر، ط/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط/ ٣ سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

○ الذخيرة في علم الكلام للشريف المرتضى (المتوفى: ٤٣٦هـ) تحقيق: السيد أحمد الحسيني، ط/ مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط/ ٣ سنة ١٤٣١هـ.

○ ذكر المعتزلة من كتاب المقالات لأبي القاسم البلخي (المتوفى: ٣١٩هـ) مطبوع أول كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار (المتوفى: ٤١٥هـ) ط/ الدار التونسية، تونس، سنة ١٩٩٣هـ/ ١٩٧٤م.

○ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤١٥هـ، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م. تحقيق: ماهر حبوش وغيره.

○ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (المتوفى: ٤٦٦هـ) ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

○ شرح المواقف للشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦) ضبطه وصححه: محمود عمر الدمياطي، ط/ طار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
○ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي (المتوفى: ٥٤٤هـ) ط/ دار الفكر، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
○ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط/ دار العلم للملايين، بيروت، ط/ ٤ سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
○ صحيح البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة (مصورة عن الطبعة السلطانية، بإضافة ترقيم الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي) ط/ ١ سنة ١٤٢٢هـ.
○ صحيح مسلم (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
○ الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ المكتبة العصرية، - بيروت، سنة ١٤١٩م.
○ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي (المتوفى: ٧٤٥هـ) ط/ المكتبة العصرية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٣هـ.
○ علوم القرآن الكريم، د. نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، ط/ ١ سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

○ العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، ط/ دار ومكتبة الهلال.
○ غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤١٦هـ.
○ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ط/ دار العلم والثقافة، القاهرة.
○ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) ط/ مكتبة الخانجي، القاهرة.
○ فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة لابن الضريس (المتوفى: ٢٩٤هـ) تحقيق: غزوة بدير، ط/ دار الفكر، دمشق، ط/ ١ سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
○ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ) ط/ مكتبة المثنى، بغداد، سنة ١٩٤١م.
○ الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لأبي البقاء الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.
○ لسان العرب لابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ) ط/ دار صادر، بيروت، ط/ ٣ سنة ١٤١٤هـ.
○ مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ط/ دار القلم، دمشق، ط/ ٣ سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
○ مجمل اللغة لابن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ) تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ٢ سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

○ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٢هـ.

○ مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب (المتوفى: ٦٤٦هـ) تحقيق: د/ نذير حمادو، ط/ الشركة الجزائرية اللبنانية، دار ابن حزم، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٧/ ٢٠٠٦م.

○ المدخل في دلائل الإعجاز من إملاء عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ) مطبوعة أول كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط/٣ سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

○ المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ) ط/ مكتبه السنة، القاهرة، ط/ ٢ سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

○ المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

○ المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١٢٧٢-١٣٤٢هـ) للسيد محمود شكري الألوسي (١٣٤٢هـ) تحقيق: د/ عبد الله الجبوري، ط/ الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧.

○ معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت ط/ ١ سنة ١٤٢٠هـ.

○ معجم البلدان لياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) ط/ دار صادر، بيروت، ط/ ٢ سنة ١٩٩٥م.
○ معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب، ط/ دار سعد الدين، دمشق، ط/ ١ سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
○ معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف بن إليان بن موسى سركيس (المتوفى: ١٣٥١هـ) ط/ مطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.
○ معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين ابن فارس القزويني (المتوفى: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
○ المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار (المتوفى: ٤١٥هـ) قوم نصه: أمين الخولي.
○ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، والدار الشامية، دمشق، وبيروت، ط/ ١ سنة ١٤١٢هـ.
○ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ) عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، ط/ دار فرانز شتايز، فيسبادن (ألمانيا) ط/ ٣ سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م
○ الملل والنحل لأبي الفتح الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ) ط/ مؤسسة الحلبي.
○ مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ الزرقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ) ط/ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط/ ٣.

○ المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط/ دار الجيل، بيروت، ط/ ١ سنة ١٩٩٧م.

○ الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) للشريف الموتضى (المتوفى: ٤٣٦هـ) تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، ط/ ١ سنة ١٤٢٤هـ.

○ النشر في القراءات العشر لابن الجزري (المتوفى : ٨٣٣ هـ) تحقيق: علي محمد الضباع، ط/ المطبعة التجارية الكبرى.

○ النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، ط/ دار المعارف بمصر، ط/ ٣ سنة ١٩٧٦م.

○ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) تحقيق: د/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، ط/ دار صادر، ط/ ١ سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

○ نهاية السول للإسنوي (المتوفى: ٧٧٢هـ) شرح منهاج الوصول في علم الأصول للبيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١ سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

○ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي (المتوفى: ١٣٩٩هـ) طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استانبول، سنة ١٩٥١م.